الشاطئ الآخر

محمد جبريل

Amly

الشاطئ الآخر

محمد جبريل

الشاطئ الآخر

الناشر
مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الفجالة

لوحة الغلاف مهداة من الفنان الكبير
هبة عنايت

إلى أمل محمد جبريل

قال أخى :

- أريد أن تترك الشقة !

كان قد مضى على وفاة أبى يومان . وكنت جالساً أقرأ فى الشرفة المطلة على شارع الميدان ، ومهموماً بالتوقعات . وكانت ظلال الغروب تنسحب من الجدران ، وزحام الشارع يهدأ ، والباعة يلمّون بضاعتهم . .

طويت الجريدة فى يدى . كنت أقرأ تفصيلات ما نشيت لصفحة الأولى : استقالة محمد نجيب من وظائفه ، وتعيين جمال عبد الناصر رئيساً للوزراء ..

- لماذا ؟

علا صوته لتناهى الأذان من مسجد الشوربجى :

- أعد للزواج فيها ..

- وأين أذهب ؟

قال فى هدوء حاسم :

- هذه مسئوليتك !

ومضت أيام العزاء الثلاثة . ورافقنا أعمامى وأخوالى إلى مقابر العامود ، يوم الخميس الأول بعد وفاة أبى . وفى ليلة الأربعين ، كومنا الأثاث فى الحجرة المطلة على سيدى الشوربجى ، ورصصنا الكراسى فى الحجرتين الأخريين ، وفى الصالة ، واستقبلنا المعزين ..

كان طارق يكبرنى بخمسة أعوام ..

حين اعترض أبى على رغبته فى الالتحاق بالكلية الحربية ، قال :

- لا واسطة لنا .. وتخرجى فى الكلية الحربية يضمن الوظيفة..

قال أبى :

- ما دامت هذه رغبتك .. لماذا لا تتقدم إلى الكلية البحرية ؟

قال فى هدوئه الحاسم :

- قبلوا أوراقى فى الكلية الحربية .. وانتهى الأمر !

اعتدنا غيابه ، حتى نهاية كل أسبوع . يقضى بيننا جزءاً

من الخميس ، وجـزءاً مـن الجمعـة . ثـم يعـد حقيبتـه للعـودة إلى القاهرة . أراه قادماً من ناحية المنشية ، أو متجهـاً إليهـا ، بقامتـه الطويلة ، النحيلـة ، ورأسـه الـذى تشـى مقدمتـه ببـوادر صلـع . لا يتلفت ، ويهمل إلقاء السلام حتـى علـى أصحـاب الدكـاكين القريبة ، والجالسين فى القهوة . أحاط نفسه بشرنقة غير مرئيـة ، عزلته عن كل أحد . وربما أدخلت له أمى طعامـه فـى حجرتـه ، فلا يشاركنا المائدة ..

لم أكن أدخل حجرته . يظل البـاب مغلقـاً ، أو مواربـاً ، فـلا أتصور ما بداخل الحجرة ، ولا أحاول دخولها ، حتى أثنـاء وجـوده فيها ..

ظلت الصورة على حالها بعد تخرجه . أمى تنشغل بالبيت ، وأبى يعود عقب صلاة العشاء . يجلـس فـى الصالـة ، أو الشـرفة المطلة على شارع الميدان ، يستمع إلى الأغنيـات فـى فونوغـراف القهوة ، أسفل البيت ، إلى موعد نشـرة الأخبـار . يديـر الراديـو حتى يعلو السلام الوطنى . فيغلق الراديو ، ويدخل حجـرة نومـه المطلة على الشارع الخلفى ..

كنت فى السنة الأولى بكلية الآداب ، وأعمل – بعد الظهر – فى كازينو الفردوس المطل على شاطئ ستانلى . وكان قد مضـى

على تخرج طارق سنتان . لم أسأله عن الوظيفة التى شغلها ، لا لأنى لم أكن أحب أن أعرف ، وإنما لطبيعته الكتوم التى تؤثر الصمت . يرفض البوح والفضفضة . يبدو قوقعة لا أعرف ما بداخلها . يعبر عن المعنى بكلمات قصيرة ، لا يشغله تأثيرها ، ولا إن عبر عما يريده بصورة صحيحة . لا يتوقع رد الفعل . يسكت ، أو يخلو إلى ما بين يديه ، أو ينصرف ..

تصورت « أن طارق » أهمل الأمر ، فأهملته . عاد إلى عمله ، وعدت إلى الكلية فى الصباح ، وإلى عملى فى الكازينو بعد الظهر ، وأنشغل - فى البيت - بالمذاكرة ، وبالقراءة فى كتب أستعيرها من المكتبة الحجازية ، القريبة ، حتى موعد النوم ..

ماتت أمى ، فعانينا أياماً قاسية ..

كان همها أن نفرغ للمذاكرة وحدها . لم تعدّنا لتحمل مسئولية البيت ، ولا أذنت لنا بدخول المطبخ ، أو حتى شراء احتياجاتنا من السوق . تدلى الحبل من الشرفة ، وتجذب " السَّبَت " محملاً بما تطلبه . وكانت تعتز بأنها سيدة بيتها ، فلا يعرف أبى من أموره شيئاً .

حين عاد أبى من المستشفى ، وهمس بصوت متعب :

انتهى !.. عرفت أن أمى ماتت . فاجأها الألم عقب الغداء . لم تكن تشكو شيئاً ، ولا ترددت على الأطباء . وتذكرت أنها كانت تغنى فى الصباح ، وهى تنفض تراب النافذة :

اتمخطرى واتمايلى يا خيل ..

صحبناها إلى المستشفى الأميرى . ظللنا على باب العنبر ، حتى أمرنا الطبيب بالانصراف . ظل أبى يتردد عليها ، يحمل طعاماً وغيارات ومجلات حديثة وقديمة ، ثم عاد بنبأ وفاتها ..

عرفت أن ما حدث أكبر من أن يتحمله أبى . ولم يكن فى مقدورنا شئ . تحيرنا ، وغلبنا الارتباك ، وترددت الخادمات على الشقة ، لا تستقر واحدة حتى يطردها أبى ..

لم يعد أبى الذى أعرفه ..

كان يصمت ، ويتكلم ، ويثرثر ، ويضحك ، ويكشّر ، ويحزن ، ويغضب ، ويصرخ ، ويهمس . تداخلت اللحظات فى لحظة واحدة ، والتوقع يشغلنى دائماً . تقهرنى الحيرة ، فلا أعرف كيف أتصرف . أتجه إلى طارق بنظرة متسائلة ، فأتلقى رد نظرة غير فاهمة ..

كان أبى يأكل بشراهة . يطلب الطعام ، ويحدد أنواعه .

وكان طارق يهمس : من أين نأتي له بذلك كله ؟!.. لكننا نعد له ما طلب ، ونقدم له الدواء في مواعيده . ثم يفاجئنا برفض الطعام والدواء ، ورفض الكلام . يكتفي بآهات طويلة ، متلاحقة .

وذات صباح ، علا صوت أبي بالغضب :

- لماذا لم توقظني مبكراً يا حاتم ؟

أردف في لهفة :

- ساعدني على ارتداء ملابسي ، حتى لا أتأخر عن المكتب ..

كان قد مضى على قعود أبي في البيت ثلاثة أعوام . غالب المرض عامين ، ثم استقال من عمله بشركة الملح والصودا ، وحصل على مكافأة نهاية الخدمة ..

ناوشتني الحيرة ، فلم أدر ماذا أقول ..

قال أبي من بين أنفاس متهدجة :

- من العيب في مثل سني أن أتأخر عن العمل ..

ضغط طارق على شفته السفلى في تحير :

- ألم تقدم أمس طلباً بإجازة ..

زوى أبي ما بين عينيه ، في محاولة للتذكر . ثم تاهت في فمه الكلمات ، فسكت .

ألفت - فيما بعد - اختلاط الأزمنة فى ذهن أبى . قال إنه لم يعد يتذكر جيداً ، ولم يعد يتذكر كل شئ . يبتر الكلمة فلا يستكملها . يحيط جبهته بأصابعه كمن يستحث نفسه على التذكر . تتداخل الأحداث فى رواياته . يتطلع إلينا بنظرة مستغيثة . تتعثر الكلمات على شفتيه . نستكمل العبارة بما نخمن أنه يريد قوله . يهز يده بعصبية ، يستحثنا على كلمات أخرى . يطمئن إلى أنه قال ما يريده ، فيبين وجهه عن فرحة طفل . ثم دخل شرنقة من الهدوء السادر . لا يمارس عاداته اليومية : الجلوس فى الشرفة وسماع الفونوغراف والراديو وقراءة الصحف ، ولا يتكلم ، أو يبدى ملاحظات ..

كنت أتمنى لو أنه فعل شيئاً . لو أنه تكلم ، أو حاول القيام ، أو بكى ..

المرة الوحيدة التى همس فيها بصوته المتعب ، عندما غلبنى نشيج :

- البكاء لن يعيدها !..

ثم دخل شرنقة الهدوء ..

•

اعتدت رؤية أبى فى جلسته على الكرسى ..

كدت أنسى قامته الطويلة ، وهو قادم من المنشية ، أو وهو يتحرك فى الشقة ، أو وهو يطل من الشرفة على زحام شارع الميدان : الصخب المتصاعد . النداءات والفصال والطاولة والدومينو والشتائم والخناقات وأغنيات الفونوغراف والصهيل والنهيق وصيحات المجذوبين ، واختلاط الأذان فى المساجد القريبة ، وصوات الجنازات ، ورغاريد النساء أمام دكان قشرة الذهب ، ورائحة المعسل والدخان وشواء اللحم ..

كنت أحب أبى . ساعديه المرتفقين للكرسى ، وشعره الأبيض المهوش ، وعينيه المحدقتين إلى ما لا أتبينه . كنت أتمنى لو أنى ساعدته على الكلام والحركة والنزول إلى الشارع . يجلس - كما الأيام الخوالى - فى القهوة أسفل البيت . يلتقى بأصدقائه ، يخوضون مناقشات تبدأ ولا تنتهى ، إلاّ بالسعى لأداء الصلاة فى مسجد الشوربجى القريب ، أو جامع الشيخ إبراهيم ..

أنظر إليه فى جلسته الدائمة على الكرسى ، لا يغيرها ، كأنها أصبحت جزءاً منه . أتساءل : ما معنى أن تقتصر حياة الإنسان على انتظار الموت ؟..

كنت أتوقع موت أبى ، وأخافه ..

لم أكن أعرف الموت ، ولا رأيت ميتاً من قبل ، وإن

عتادت سماع كلمة الموت . أسمعها فلا تثير انتباهي . لا تشغلني لا عندما أفكر في أبي . يقتحمني هاجس الموت . عندما يرين سكون في حجرته . تغيب الكحة أو الشخير ، أو تقلقله على لكرسي ، أو حركة يديه وهو يعد القهوة . أتسلل في الصباح ، أنظر من الباب الموارب . لا أغادر مكاني قبل أن أطمئن ترددات الأنفاس ، أو نوبات الكحة ، أو ارتشافه المتكرر فناجين القهوة ..

صارحت طارق بمخاوفي ..

كان أبي قد تعثر ، فسقط في الطرقة بعد خروجه من دورة مياه . صحونا على ارتطام جسمه بالأرض . قال إنه أصيب بدوخة ، فتعثر ..

قال طارق :

- أبونا مريض بالربو .. ونومه قليل ..

خنق النشيج صوتي :

- أخاف عليه !

وهو يحاول إخفاء انفعاله :

- هذا أجل .. واستسلامه للنوم وهو سائر ، لا يعني أنه سيموت ..

تململت :

- أخاف عليه من قبل ذلك !..

حدجنى بنظرة غاضبة :

- غاوى خوف إذن ؟!

جاشت عواطفى :

- أبى لا ينام مثل الناس .. إنه لا يترك كرسيه ..

قال فى هدوئه الحاسم :

- هذه طبيعة مرضه ..

وأشاح بيده :

- لا تعد إلى هذا الكلام !

لم أتحدث إلى طارق - ثانية - عن مخاوفى .. لكننى ظللت أخاف على أبى ، وأتسلل - كل صباح - إلى حجرته ، أتطلع إليه من وراء الباب الموارب ..

ثم مات أبى ..

عدت من الكلية ، فوجدته ممدداً أمام دورة المياه . خمنت أنه سقط وهو يدخل إليها . أكد وفاته الجيران وأصحاب الدكاكين ورواد القهوة ..

كان أبى قد أنفق مكافأته على العلاج ومصاريف البيت .

وحين قلب طارق جيوبه ودولاب ملابسه ، وجد سبعة وعشرين جنيها ، فاستدنا من أخوالى وأعمامى لإتمام مصاريف الجنازة ..

التقيت به على ناصية شارعى الميدان وسوق السمك القديم . كانت ظلال الغروب قد انحسرت عن الجدران والنوافذ ، وحلت ضمة رمادية شفيفة . وثمة صفير باخرة ، يترامى من الميناء الغربية ..

سألنى عن وكالة درويش ..

أشرت ، واتجهت إلى باب البيت ..

لحقنى بالسؤال :

- هل تعرف الفرنسية ؟

توقفت ..

كان بيضاوى الوجه ، أبيض البشرة . له عينان زرقاوان ، دائمتا التلفت . ينسدل شعره الذهبى على قفاه . تتطاير خصلات منه ، فيزيحها براحته إلى الوراء ..

تعثرت كلماتى بالحرج :

- ليس إلى حد الإجادة ..

وهو يهز بيده أوراقاً مطوية ..

- معى رسالة إلى الوكالة ..

لعق شفتيه بطرف لسانه ، وأضاف :

- لغتى العربية ضعيفة .. وأخشى أنهم لن يفهموا ترجمتى ..

كنت أعرف صاحب الوكالة . قصير ، وإن تناسق تكوين جسمه مما لا يشى بقصره . أهم ما يميزه صلعة عريضة ، ملتمعة بحبات عرق ، تتوسطها مساحة سوداء شبه دائرية . أراه على الباب ، أو وسط صناديق وأحولة ، لم أحاول تبين ما فيها ..

شاركت فى ترجمة الرسالة . أوضح ما قد يغمض على الرجل فهمه ، أو أهز رأسى موافقاً على المعنى ..

رنا الشاب إلى بيتنا وهو يصافحنى مودعاً :

- هل تسكن هذا البيت ؟

- نعم ..

- أى طابق ؟

حدجته بنظرة متسائلة :

- الثانى ..

افترت شفتاه عن ابتسامة متوددة :

- هل تأذن لى بزيارتك ؟..

استطرد كالمتذكر :

- إسمى ديمترى كوتوميس ..

إمتدت يدى بالمصافحة :

- أنا حاتم رضوان ..

قال لملامحى المتسائلة :

- أعرض عليك صداقتى ..

قاومت الارتباك :

- أهلا وسهلا !

أشار ديمترى إلى بيت من ثلاثة طوابق ، وقال :

- هذه هى الشقة ..

البيت فى شارع الكنيسة الأمريكانية . ملاصق للكنيسة الإنجيلية ، وبالقرب من نقطة شريف . من ثلاثة طوابق . يطل فى الجانبين على شارع سيدى المتولى وشارع توفيق . الوجوه التى تطل من النوافذ والشرفات معظمها لأجانب ، يتطلعون إلى الطريق ، ويقرءون الصحف ، ويتبادلون الأحاديث . وكانت البالوعات ، على جانبى الشارع ، قد ابتلعت مياه الأمطار . لم يعد إلاّ التماعات متناثرة على الأسفلت ..

قلت :

- أيها ؟

وهو يشير بأصبعه :

- التى بلا حبال غسيل ..

لا حظت أن الشرفة هى الوحيدة فى البيت بلا منشر غسيل . أين ينشرون غسيلهم ؟

همست بالملاحظة ، فقال :

- للشقة بلكونة خلفية ..على حارة الدردير ..

تأملت الحجرة : فى مواجهة الباب بوفيه ذو مرآة بيضاوية مطوسة فى بعض جوانبها ، وعليه قطعة رخام تكسرت حوافها . تتوسطها فازة زرقاء يتصاعد منها ثلاث ريشات طاووس .. إلى اليمين فوتيل بامتداد معظم الحائط ، يقابله كرسيان ، تغطت جميعها بكريتون أبيض ، فصّل عليها . وفى المنتصف « ترابيزة » خشبية مستطيلة ، عليها مفرش من الدانتيل الأبيض .. وتدلت من السقف نجفة عنقودية الشكل ، انطفأ معظم لمباتها .. وعلقت على الجدار - أعلى الفوتيل - لوحة زيتية لبنات بملابس شفافة ..

تناثرت معلوماته فى أيام صداقتنا التالية ، عن ظروفه الشخصية . يعمل فى بنك باركليز بشهادة تعادل التوجيهية . يحيا مع أمه وزوجها ، وياسمين ، أخته من الأم . كان سريع الإلتفات . لا يعلو صوته إذا تحدث ، فعباراته أقرب إلى الهمس . لم يكن

يتعمد اختيار الكلمات ، ولا يتدبر وقعها فى نفس محدثه ، وإن حرص على كتم رأيه وانفعالاته ، فلا يبين عما يمور فى داخله . يخوض فى الأحاديث ، يروى ، ويبذل المعلومة ، ويسأل ، ويجيب ، لكنه لا يعبر عن رأيه الشخصى ، والبسمة المحايدة ، كأنها التصقت بوجهه . وكان دائم القضم لأظافره ..

دخلت الأم بصينية فضية ، عليها فنجانان ، وبراد شاى من صينى . ممتلئة الجسم . تهدلت وجنتاها ، وضاقت العينان وزرقاوان فى الوجه الممتلئ ، والبشرة بيضاء مشربة بحمرة ، تخللتها خطوط وتجاعيد حول الأنف والفم ..

وضعت الصينية على « الترابيزة » الخشبية ، المستطيلة . ورمقتنى بنظرة سريعة ، وشفتاها تتمتمان بكلمات مجاملة ..

وأغلقت الباب فى انصرافها ..

قسطنطين كفافيس ..

استعدت الاسم حين ذكره ديمترى للمرة الأولى . لم أكن أعرفه ولا قرأت له من قبل ..

قال :

- إنه شاعر يونانى سكندرى .. كتب معظم قصائده فى

الإسكندرية ..

همست بالسؤال :

- باللغة العربية ؟

وهو يحرك راحته فى الفراغ :

- لا .. باليونانية .. ولا أظن قصائده ترجمت إلى العربية ..

قلت :

- وكيف أقرأ له ؟ ..

تهلل وجهه بابتسامة طفل :

- هذه مهمتى ..

وقرأ لى قصائد من كفافيس . يقرأ السطر الشعرى فى صمت ، ثم يعلو به صوته . بدا لى عالماً آخر يختلف حتى عن عالم القصيدة العربية الحديثة . يتحدث عن الإسكندرية والبحر وأنطونيو ودنشواى وابراهيم ناصف الوردانى والعطارين ..

طوى ديمترى الديوان ، ووضعه على المائدة أمامنا ..

قلت :

- هذا شاعر مصرى ..

وشى صوته بحزن :

- للأسف .. لم تترجم قصيدة واحدة له إلى العربية ..

قلت بعفوية :

- لماذا لا تفعل ؟

تألق وجهه - ثانية - بابتسامة الطفل :

- اكتف بترجمتى لك .. الترجمة إلى العربية صعبة ..

نقلنى - فى الأيام التالية - إلى دنيا غريبة ، جميلة ، لم يسبق لى دخولها : كازنتزاكس وناظم حكمت وبلزاك وزولا وفلوبير وفرجينيا وولف وجيمس جويس ، وعشرات الأسماء التى غنيت فى أول نطقى لها ، وعرفت هوميروس وإسخيلوس وأفلاطون وأرسطو ..

كنت أقرأ لطه حسين والعقاد والمازنى وأحمد أمين وهيكل وحكيم والزيات والمنفلوطى والسحار والبدوى ونجيب محفوظ . وأقرأ عن الأسماء التى حدثنى - فيما بعد - عنها ، لكننى لا أقرأ لها . أعرف أنهم فلاسفة ومفكرون وأدباء وشعراء ومؤرخون ، لكن هذه تحددت فى الكتابات العربية مما كان يقرؤه أبى . حولت سمية " إلى مكتبة ، كدست فيها الكتب والمجلدات وقصاصات الصحف . وعلى الجدار لوحة لأدهم وانلى فى غلاف مجلة ، وتدلت سبحة كبيرة الحبات ، أهداها لأبى أحد أصدقائه . أحلم بأن أستطيع الكتابة - ذات يوم - فلا تظل

القراءة شاغلي الوحيد . أبعث بما أكتب إلى الصحف ، فتنشره مذيلاً باسمي . وكنت أتخيل اسمي في موضع أسماء الكتاب وأنا أقرأ لهم ..

كتبت ما تصورت أنه قصة قصيرة . أعدت قراءتها ، فتبينت سخفها . مزقتها ، وقررت أن أرجئ المحاولة ..

تعمدت أن أطيل استرخائي في الصباح . أستدعي أفكاراً . أصوغها في كلمات وتعبيرات . أحذف وأضيف وأعدل . وعندما أخلو إلى الورق ، أسجل ما أعددته في ذهني . أتبين سخفه ، فأمزقه ، وأرجئ المحاولة ..

كنا قد أسلمنا أقدامنا ومناقشاتنا طريق الكورنيش ، حين أشرت إلى موضع تمثال الخديو إسماعيل :

- مسكين !.. لماذا أزالوه هو بالذات ؟

قال ديمتري :

- ذنبه أنه أراد أن يجعل مصر قطعة من أوروبا ..

ثم فاجأني بقوله :

- هل تعرف أن اليونانيين هم الذين أنشأوا الإسكندرية ؟

رمقته بنظرة متسائلة :

- ماذا تقصد ؟.. :

انفرجت شفتاه عن ابتسامة هادئة :

- أبداً .. مجرد معلومة ..

أخليت لنبرة التحدى طريقها :

- والعرب أنشأوا القاهرة ..

واتجهت نظرتى - بتلقائية - إلى المدينة من ورائنا :

- الإسكندرية والقاهرة ، مدينتان مصريتان ، يسكنهما مصريون ..

خالط صوته ارتجافة :

- أنا أوروبى يحيا فى مصر ..

قلت :

- لكنك تحيا هنا منذ طفولتك ..

سرت الارتجافة فى وجهه ، فبدلت ملامحه :

- وأحيا فى أوروبا بالأفلام والكتب والإذاعات ..

زارنى ديمترى فى كازينو الفردوس ..

مع أنى حدثته عن عملى فى الكازينو ، فإنى لم أتوقع زيارته ..

لاحظ ارتباكى ، فقال :

- كنت في مشوار قريب .. فقررت زيارتك ..

دعوته إلى الجلوس بجانبى ..

كنت جزيرة فى البحر الساخن المحيط بى . أسجل الحساب ، وأقدم الفيشات . من ورائى المطبخ يطل - من جانب - على طريق الكورنيش . ومن جانب على الجزء الخلفى للشاطئ . رمال ومخلفات وكبائن مغلقة . من أمامى ، صالة الكازينو تصخب بالأضواء الباهرة والخافتة والملونة ، وعزف الموسيقا ، وحركة الجرسونات ، والأحاديث الهامسة ، وتلامس الأيدى ، وروائح الطعام ، وتقارع الكئوس ، والخمر ، والقئ ، والضحكات ، وتعرى الأجسام ، والتصاقها ..

غادرنا الكازينو آخر الليل ..

عبرنا الطريق إلى رصيف الكورنيش . ارتفقنا السور الحجرى ، نصغى إلى رتابة صوت ارتطام الأمواج بالمكعبات الأسمنتية أسفل الكورنيش . وثمة نقاط ضوء تتناثر فى مدى الرؤية ..

قلت وأنا أتطلع إلى الأفق الأسود :

- هل تصدق أنه لايفصلنا عن أوروبا غير هذا البحر ؟

قال ديمترى :

- البحر لا يفصل .. الإسكندرية أحد شواطئ البحر

لأبيض ، مثل أثينا ومرسيليا ونابولى ..

ثم وهو يتأمل شهاباً ، ومض ، واختفى :

- عرفت من أمى أن معظم أبناء اليونان يستطيعون رؤية بحر من نوافذهم ..

وتظاهر بنزع ثيابه :

- هل نعبر سباحة إلى أقرب الموانى ؟..

بدا لى صبى طه حسين فى "الأيام" ضعيفاً ، ومسكيناً ، ومتخاذلاً . لا يستطيع المضى بعيداً عن الأسوار المحيطة بالبيت ، ولا يقوى على تناول الطعام بمفرده ، ولا تسعفه أذناه فى متابعة ما ينبغى مشاهدته . وحين يقهره الإخفاق ، يحاول إزهاق روحه بسطور ..

الظل المباغت على الكتاب ، نبهنى إلى أن المساء قد حل ، وأن « طارق » قد أضاء النور ..

قال وهو يستند بيديه على إفريز البلكونة :

- متى تترك البيت ؟

طويت الكتاب بأصابع مرتعشة :

- نسيت ذلك الموضوع القديم ..

وهو يغمض عينيه ، ويهز رأسه :

- أنا لم أنسه ..

جاشت مشاعرى :

- أنت لا تملك الشقة بمفردك ..

قال فى هدوئه الحاسم :

- لقد اتخذت قرارى ..

ثم وهو يغتصب ابتسامة :

- سأعطيك ما يعينك على السكنى فى شقة أخرى ..

جاهدت ، حتى لا يشى صوتى بما أعانيه :

- الصعوبة ليست فى الشقة .. ولكن .. الأثاث ..

دعك - بأصابع متمهلة - مؤخرة رأسه ، وقال :

- اشتر ما تريده من باعة الأثاث القديم بشارع فرنسا ..

رفعت إليه عينين غاضبتين :

- ولماذا لا نقسم أثاث الشقة ؟

تململ فى وقفته :

- هذا أثاث أبى .. ويجب أن يظل فى شقته ..

اتجهت عيناى إلى الطريق بنظرة دامعة :

- لن تصبح كذلك .. فسأهجرها وتظل فيها بمفردك ..

قال وهو يمضي إلى الداخل :

- أنذرتك من قبل .. وسأغلق الشقة عليّ وعلى زوجتي بعد ستة أيام !

حدجني عمي بنظرة متأملة ..

كان قد مضى خمسة أعوام على زيارته الأخيرة لنا . مال جسمه إلى البدانة ، وتناثرت في وجنتيه بقع بنية ، وصبغ شعر رأسه بلون أحمر ، يناقض بشرته السمراء . وكان يرتدي روباً حريرياً مشجراً ، به نقوش وخطوط متداخلة ، ينسدل على بيجامة ، بينما دس قدميه في مركوب مغربي ..

قال في نبرة متراخية :

- قلبي معك .. لكن هذه مشكلة أسرية ..

لملمت جرأتي :

- أنت الآن في مقام والدنا ..

أطرق لحظة ، ثم واجهني بنظرة جامدة :

- إذا كبر ابنك خاوه .. أليس كذلك ؟

ثم وهو يضم أطراف الروب :

- لقد كبرتما الآن .. والمفروض أن تحلا مشكلاتكما ..

اختنق صوتى :

-- هل تتركه يطردنى من الشقة ؟!

لاحظت ارتعاشة خفيفة فى شفتيه :

- لن يطردك بالقوة !

وأردف بلهجة معتذرة :

- أنا مشغول كما ترى .. فلماذا لا تلجأ إلى عمتك تبارك ، أو إلى أخوالك فى غربال ؟

ضيعت أياما فى البحث عن أقارب اعتدت زيارتهم لبيتنا . ركبت ترام الرمل إلى باكوس ، وترام د إلى محرم بك ، وترام ٤ إلى كرموز . أعانى إحساساً قاسياً بأنى مهزوم فى داخلى ..

تمنيت عالماً آخر غير الذى أحياه . لا بيت ، ولا جامعة ، ولا كازينو . لا أخ ، ولا أهل ، ولا ناس . جاوز الإحساس بالحزن مناوشتى . داخلنى قلق مبهم لا أدرى مصدره . ولا حظت أنى كنت أكلم نفسى بصوت مرتفع ، أو أغنى ..

نفث السمسار دخان الشيشة ببطء ، ثم قال :

- أين تسكن الآن ؟

قلت :

- مع أسرتى ..

رمقنى بنظرة ارتياب :

- ولماذا تتركها ؟

قلت وأنا أغالب ما لا قبل لى على احتماله :

- ظروف !

عانيت التردد قبل أن أخطو داخل الدكان . أعدت قراءة لافتة : سمسار عقارات وتأجير شقق مفروشة ..

كان الرجل - وراء المكتب الخشبى الصغير - مشغولاً بشد أنفاس الشيشة . فى حوالى الخمسين . له أنف ضخم ، وشارب رفيع كالخط المتداخل البياض والسواد ، فوق شفتين زاد من امتلائهما بروز فى السنتين الأماميتين . يركز نظرته على عينى محدثه ، كمن يريد أن ينفذ إلى داخله . ويحرص على تحريك يده وهو يتكلم ، ليرى محدثه الساعة المذهبة فى يده . وكان يرتدى جلباباً صوفياً ، ويضع على رأسه طاقية من الصوف . ويغطى عنقه بتلفيعة تدلت حتى الصدر ..

قال السمسار :

- لم يسبق لك السكن إذن مع غرباء ؟

تحرك فى صدرى أمل :

- لا أريد الإقامة مع أحد .. أريد مكاناً مستقلاً ..

ومضت على شفتيه ابتسامة مترفقة :

- قد لا تستطيع دفع إيجار شقة مفروشة .. الأفضل أن تؤجر حجرة مع أسرة طيبة ..

استطرد قبل أن أناقش الأمر ، وأكون رأياً :

- هل تقيم مع أسرة يونانية ؟

أسرة يونانية ؟! ..

بدا لى الأمر مثيراً ، ويدعو للتأمل : ديمترى وكازنتزاكس وكفافيس وأريستوفان ويوربيدس وإسخيلوس وفلاسفة الإغريق ..

قلت :

- أجرب ..

أعاد لىّ الشيشة إلى موضعه :

- ليس فى الأمر تجربة . إنها أسرة محترمة .. وأنا لم أرشحك للإقامة معها إلاّ لمظهرك ..

ثم وهو يشملنى بنظرة متعاطفة :

- يبدو أنك ابن ناس طيبين !

وعلا صوته بلهجة محذرة :

- لا أريد مشكلات شباب .. فاهمنى ؟

صعدت السلالم العريضة ، المرتفعة ، أكتم الانفعال ، والأسئلة التى تستشرف أيامى المقبلة . بدت لى حياتى الجديدة ، مرتقبة ، سراً غامضاً ، يشغلنى التعرف إلى ملامحه . تملكنى حماس بأن إقامتى مع أسرة أجنبية تتيح لى الانتقال إلى بيئة مغايرة ، عالم جديد ، يختلف عن العالم الذى ضاق بى ، وضقت به ..

توقفت فى السلمة الأخيرة ، عند بسطة الطابق الثالث . بيت ملاصق لجامع العطارين . من ثلاثة طوابق . يبين عن ذوق غربى فى عمارته ، ونقوشه ، والأعمدة الصغيرة أول كل طابق . واجهته على شارع سيزوستريس . أمام الواجهة دورة مياه عمومية تحت الأرض . يحيط بالسلم المفضى إليها درابزين من حديد ..

فتح الباب مواربا . وتكلم الرجل بصوت لم أتبينه ، مع وقف وراء الباب ، وأشار ناحيتى ..

نفتح الباب ، ودخل الرجل ، ودخلت وراء ندائه :

- تفضل !

أول ما طالعنى ، سيدة فى أواخر الخمسينات . ترتدى ثوباً منزلياً منقوشاً بدوائر صغيرة ملونة ، وتضع على رأسها

إيشارباً متداخل الألوان . تتسق قامتها الطويلة مع امتلاء جسمها ، وإن خلت من البدانة . رسمت حاجبين فوق عينين عسليتين ، تساقطت رموشهما . وثمة زغب يرسم شارباً خفيفاً فوق شفتيها ، وشعيرات متباعدة في ذقنها ..

على يسار المدخل كونصول قديم ، مشغول بالأرابيسك ، تعلوه مرآة بيضاوية الشكل . ومن أعلى الطرقة تتدلى نجفة ذات أربعة أذرع . يفضي المدخل إلى صالة واسعة ، يشغلها أنتريه أسيوطي ، وترابيزة سفرة مستطيلة ، عليها منفضة خالية من أعقاب السجاير ، وحولها ستة كراسي . وتتوسطها علبة من الصدف ، مغلقة . وعلى الجدران صور عائلية ، ولوحات مقلدة لأعمال فنانين عالميين ، ومشاهد ، خمنت أنها لمدن يونانية تطل على الساحل . وأعلى باب الشقة من الداخل ، علق صليب خشبي ، عليه نحت للمسيح وهو يضع إكليل الشوك . وعلى يمين الباب ممر ضيق نسبياً ، توقعت أنه يفضي إلى المطبخ والحمام وغرف النوم ..

مدت السيدة أصابعها :

- أهلاً وسهلاً ..

أضافت وهي ترمقني بنظرة متأملة من وراء نظارتها الطبية :

قال الحاج عبد العزيز إنك معرفة .. لكنه لم يحدثنى عنك .. اسمك ووظيفتك ولماذا تضطر للإقامة مع أسرة ..

لا حظت أنها تنطق العامية بلهجة أجنبية . تحول المذكر إلى مؤنث ، والحاء إلى خاء ..

- اسمى حاتم رضوان .. طالب فى كلية الآداب .. وأعمل بعد الظهر ..

وهى تعبث بزرار الفستان :

- من الأرياف ؟

- لا .. من بحرى ..

نقلت نظرتها بين السمسار وبينى :

- فلماذا تركت أسرتك ؟

غامت عيناى بالدمع :

- ظروف ..

قالت فى نبرة محايدة :

- احتفظ بظروفك .. ما يهمنى ألاّ تنعكس تلك الظروف على حياتك معنا ..

اعتبرت العبارة الأخيرة موافقة على الإقامة فى الشقة . تلفت - بعفوية - أخمن الحجرة التى سأقيم فيها . الأبواب

المغلقة متشابهة . عمالية ، تقترب من السقف المرتفع أصلاً ..

قالت :

- يمكن أن تأتي بحقائبك ..

ثم وهي تتفرس في وجهي بعينين متشككتين :

- أليس معك حقائب ؟

رفت على شفتي ابتسامة مهزومة :

- طبعا ..

قالت في صوت آمر :

- يمكن أن تأتي بحقائبك بعد الظهر .. لا بد أن يكون زوج ابنتي في الشقة ..

لمحت في نهاية الصالة - بيانو قديما . يمثل جانبه الأيسر بداية طرقة . خمنت - لا بتعادها النسبي عن بقية الشقة - أنها تفضي إلى الحجرة التي سأقيم فيها ..

كنت أحيا انفعالات متباينة . وأنا أحمل حقيبتي ، وأصعد السلم ..

كانت الليلة الأولى التي أمضيها خارج بيتنا . ألمح أبي واقفاً في الشرفة ، إذا تأخرت في العودة . يسبق صعودي بفتح

ـب :

– أنت تقتل نفسك !

أحاذر حتى لا أوقظ طارق . أطل من خصاص النافذة على حركة الليل الهادئة فى شارع الميدان . أغتسل ، وأتمدد على سريرى ، وأسحب كتاباً ، أقرأه ، حتى يغلبنى النوم ..

حين عدت – فى مساء اليوم الأول – فاجأتنى الحجرة بعدة ترتيبها . هل هى السيدة ؟..

حرصت – فى اليوم التالى – على أن أضع كل شئ فى مكانه ، قبل أن أترك البيت . أتذكر حجرتى المطلة على شارع الميدان . الملابس المبعثرة ، والكتب التى رصصتها كيفما اتفق ، وصفة الدولاب التى أهمل إغلاقها ..

لم تسألنى السيدة عن بواعث تركى للبيت ، وإن سألتنى عن إقامتى وعملى . وأنصتت إلى ما رويته عن ظروف موت أبى ، وحياتى فى بيت شارع الميدان ..

كنت أعانى – فى البداية – فهم كلمات السيدة ، تختلط لهجتها المصرية باللغة اليونانية بما يصعب فهمه . زحف الشيب إلى معظم شعرها ، فلم تحاول صبغه . عقصته فى ضفيرة وحدة على رأسها . وربما ألقت بوشاح حريرى ملون ، شفاف ،

على رأسها ، ينسدل حتى صدرها . وثمة تجاعيد خفيفة عند زاويتى فمها . وفى رقبتها عروق زرقاء خفيفة ، تنبض إذا تكلمت ..

عرفتنى بابنتها وزوجها ، ودعتنى إلى مشاركتهم الجلوس فى الصالة ..

كانت السيدة الصغيرة فى حوالى الخامسة والعشرين . متوسطة الطول ، وإن مال جسمها إلى السمنة . ذات خصر نحيل ، يتناقض مع ردفين ممتلئين ، يهتزان لأقل حركة . بشرتها بيضاء ، وعيناها زرقاوان ، تطلان من رموش طويلة . ويتناثر فى وجهها نمش كثير ، وأسدلت شعرها على كتفيها . لم تكن تتحرك ، أو تقعد - لحظة - بغير وليدها . تضعه على صدرها ، تطعمه ، تنيمه ، حتى فى وقفاتها بالمطبخ - حين أعبره إلى الحمام - كانت تحمل الطفل وهى تعد الطعام .

أما الزوج فكان يقترب من الثلاثين . بيضاوى الوجه . فى مقدمة رأسه بوادر صلع خفيف . له أنف حاد طويل ، ينتهى بشارب ، أهمله فتدلى بجانبى فمه . وثمة ندبة بنية فى حجم الحمصة على خده . أميل إلى الطول ، وإن تناقض اتساع صدره مع خصره النحيل وساقيه النحيلتين . خمنت أنه يستخدم

موتوسيكل " لما تأملت ثيابه : جاكت من الجلد ، وبنطلون ، ينتهى داخل حذاء برقبة قصيرة . ويضع على عينيه نظارة شمسية ، ويدس يديه فى قفاز جلدى .

لفنى إحساس بالغربة عن كل ما حولى ..

فى شارع الميدان ، لى جيران وأصدقاء ، يعرفوننى وأعرفهم . نتبادل الأسئلة والتعليقات والمناقشات . هنا أبدو جزيرة فى بحر لا أعرف طبيعته . أحاديثهم باليونانية ، وإن تداخلت معها كلمات بالعربية . أتابع حركات الأيدى والشفاه والأعين ومشاعر الغضب والفرح والحزن ، لا تصلنى فى كلمات أفهمها . ألفت المفردات فى أحاديث الباعة اليونانيين بشارع الميدان ، وإن لم أكن أفهمها . يعروني الارتباك . أتشاغل بقراءة كتاب أو مجلة فى يدى . أحاول فهم تعبيرات الوجوه والأيدى إذا اتجهت نظراتهم ناحيتى . أشعر أنى المقصود ، فأحاول الفهم . يصدمنى اليأس ، فأدس عينى فى الكتاب ، أو أقوم إلى حجرتى ..

كنت - إذا أردت التحدث - أكلم السيدة وحدها . حتى الأسئلة التى أحاول أن أشارك بها ، لا تحاول السيدة الصغيرة زوجها أن يردا عليها . أتوقع أن تكلمنى السيدة وحدها . كأنى فى خصام غير معلن مع السيدة الصغيرة وزوجها . حتى

إذا تنبهت إلى نظرة متأملة ، متسللة ، ما تلبث النظرة أن تبتعد ، تتظاهر بالتطلع إلى ما لا أتبينه . أحسست أنه قد نشأت بينى وبينهما كراهية متبادلة ، منذ التقت أعيننا . لحظة - أو أقل - نظرت إليهما ، وتأملانى . ثم حل نفور ، كان من ناحيتى انعكاساً للنفور الذى أطل فى عيونهما ..

قلت للسيدة :

- هل استأذنت ابنتك فى استضافتكم لى ؟

تحلقت فى دهشة :

- وما شأن فرجينيا ؟

قلت :

- ربما يضايق زوجها وجود غريب فى البيت !

لا حظت ارتعاش صوتها :

- لسنا أولاد عرب .. المرأة لا تحتاج إلى وصاية كى تحافظ على بيتها ..

وحدجتنى بنظرة متسائلة :

- هل ضايقك أحد ؟

وأنا أهز رأسى :

- أبداً .. مجرد سؤال !

هل عرضت عليهما الأم فكرة تأخير الحجرة ، أو أنهما فوجئا بى ؟. ألمح فى عيونهما شيئا يصعب أن أحدده . شيئاً لا أستطيع أن أصل إليه ، وإن فسرته بأنه رفض لوجودى . رفض صامت هادئ ، يتعمد إهمال البوح . أشعر بتحديقهما فى وجهى ، كأنهما يحاولان النفاذ إلى شئ أحرص على إخفائه . أفاجأ بتحديقهما الساكن ، فأخفض عينى بسرعة . أشعر بنظراتهما تنفذ من ثيابى . تحدث فى داخلى ما لا أستطيع التعبير عنه . أقتل ابتسامتى عندما تواجهنى النظرة الهادئة ، الباردة ..

حاولت - ذات مساء - أن أزيل الحاجز بين فرجينيا وزوجها ، وبينى . اتجهت إلى الزوج بنظرة باسمة :

- أشفق عليك من الهواء البارد وأنت تقود الموتوسيكل ..

عكس إحساسه بالمفاجأة فى تنقل نظرته بين الأم وفرجينيا ، وبربشت عيناه فى ارتباك ، ثم سكت ..

قالت الأم دون أن تنتظر إجابته :

- بيروس يضع فى الشتاء حاجزاً من البلاستيك فى مقدمة الموتوسيكل ..

أزمعت أن أهمل الكلام . لا أتحدث - ثانية - إلى فرجينيا وزوجها ، ولا إلى الأم . أتى بى السمسار إليها ، ووافقت على

إقامتي ، وهي تكلمني ، وتعنى بالسؤال عني ، فلا شأن لى بفرجينيا وبيروس ..

كنت أعاني التردد في استخدام دورة المياه والحمام . باعدت فترات الاستحمام . أحمل الصابونة واللوفة والفوطة . أظهرها ليروها وأنا في طريقي إلى الردهة .

لم أكن أجيد إعداد الطعام ، فأكلت في المطاعم . أي مطعم أضمن رخص أسعاره ، أدخله . رسوت - بالتجربة - على دكان البغدادي بشارع عبد المنعم ، ومطعم الحرية أول شارع توفيق . ربما حملت معي إلى البيت ساندوتشاً ، أو كيساً من الفاكهة ..

كنت أغتسل - قبل أن أغادر الشقة - في الحوض الصغير بالطرقة . وأعود - في معظم الليالي - فأغلق باب حجرتي ..

فاجأتني السيدة :

- أنت لا تذهب إلى المطبخ ولا إلى الحمام ..

كانت تجيد قراءة ما أفكر فيه ، ما أعتزم قوله ، أو فعله . تفاجئني بالملاحظة ، أو بالسؤال ، فأفطن لعربي ..

لا حظت ارتباكى . أضافت فى لهجة مشفقة :

- أنت الآن واحد منا !

رنوت إلى وقع الكلمات فى فرجينيا وبيروس . ظلا على صمتهما الهادئ ، المتوتر ..

تجرأت - فى الليلة نفسها - فدخلت المطبخ . تنحنحت ، ومشيت بخطوات زاحفة ، وأحدثت حركة ..

وقالت لى السيدة فى ليلة تالية :

- لماذا تحرص فى قعدتك معنا على الزى الرسمى ؟

كنت أرتدى البيجامة فى حجرتى . لا أغادرها إلاّ بعد أن أرتدى القميص والبنطلون والحذاء ، وأطمئن إلى تسريحة شعرى . أثق أنى بؤرة تأمل فرجينيا وبيروس ، يتابعان كل ما أقوله وأفعله .

لا أرى نظراتهما ، لكننى أشعر بها . تتبعنى فى كل لحظة ، حتى فى الأوقات التى أخلو فيها إلى نفسى ، لا أشارك فى شئ ..

تابعت عينى ديمترى فى تأملهما لحجرتى :

- هل هذه مكتبتك ؟

قلت بلهجة معتذرة :

- ما استطعت حمله منها .. بقية الكتب فى بيت الأسرة ..

كانت الحجرة ضيقة المساحة . بها سرير خشبى ، ودولاب من ضلفتين ، وكونصول بثلاثة أدراج ، تعلوه مرآة ، وكرسى يتداخل فى فراغ ، ومكتب خشبى بجانب النافذة الوحيدة ، فوقه فازة على شكل قلة ، تصاعدت منها زهور بلاستيكية . وتدلت من السقف لمبة بلا غطاء . أما الحوائط ، فمغطاة بورق رسمت عليه نقوش صغيرة ، باهتة ، كالمنمنمات ..

سحب كتاباً ، وقلبه . حاول القراءة . ثم أعاده إلى موضعه وهو يهز رأسه :

- لغتكم صعبة ..

قلت :

- نحن أيضاً نعانى صعوبتها ..

وهو يخفض صوت الراديو :

- ألا تحب الموسيقا الغربية ؟

قلت :

- أحبها .. لكننى أفضل الموسيقا العربية ..

صمت لحظة ، ثم قال :

- أحياناً .. أستمع إلى أغنيات عربية ..

وعلا صوته بفرحة :

- هذه الأغنية .. أحبها جداً ..

رنوت إليه بنظرة متسائلة :

- أية أغنية ؟

- التي تعلو فيها الموسيقا وتهبط ..

ودندن باللحن ..

قلت :

- تقصد صافيني مرة ؟

أعاد كوب الشاى إلى الترابيزة :

- هذه هي .. أغنية جميلة !

ثم وهو يعيد خصلة شعر متمردة إلى موضعها :

- هل تستمع إلى إذاعات أجنبية ؟

قلت بصوت متراخ :

- أنا قليل الاستماع إلى الإذاعة عموماً ..

وهو يلوح بسبابته :

- الدنيا ثائرة على عبد الناصر ..

رنوت إليه بنظرة متسائلة :

- لماذا ؟

- صفقة الأسلحة ..

قلت ، لمجرد أن أبدى رأياً :

- تسول الرجل السلاح من الغرب .. وحين أخفق اشتراه من الشرق !

تذكرت ما قاله - ليلة أمس - موظف بالجمارك ، يتردد على الكازينو :

- رأيت عشرات الدبابات على رصيف ثمرة ثمانية .. المفروض أنها سرية .. لكن الجميع كانوا يعلمون أنها صفقة أسلحة ، وكانوا فرحين بها ..

قلت في تهوين :

- هذه مجرد صفقة سلاح .. فلماذا يحمّلونها بأكثر مما تحتمل ؟

ضغط على الكلمات في ثقة :

- يتهمون عبد الناصر بالاندفاع نحو موسكو ..

تذكرت هدوء طارق الحاسم ، بعد أن قلت في تأملي للفراغ :

- أفضل أحاديث الأدب ..

رفت على شفتيه ابتسامة مهزومة :

- لم يعد الأدب ينفصل عن السياسة !

كان كلامه في الأحاديث السياسية ، جزراً منفصلة في بحار أحاديثنا . يلقي المعلومة ، أو الرأي ، ثم يعود إلى ما كنا

نتحدث فيه . صعب علي ، وأنا أتابع ما يحمله من أخبار وتعليقات ، أن أتعرف إلى وجهة نظره . يتحدث عما يجرى "هناك" ، فلا صلة شخصية له به . لا ينفعل ، ولا يعبر عن موقف محدد : هذا ما حدث ، وأنا أرويه كما قرأته ، أو استمعت إليه . حتى ما يفد إلى ذهني من أسئلة ، لم أكن أجد في كلامه تعبيراً عن وجهة نظر ، تأكيداً لمعنى يهمه أن يعلنه ..

نظر إلى ساعته ، وقال :

- يبدو أني تأخرت ..

ثم ضرب فخذي بأطراف أصابعه :

- هل أقاسمك النوم على السرير ؟..

غالبت الارتباك :

- ربما تضايق أصحاب الشقة !

قام ديمترى لنقرات على الباب المغلق ..

تصورت أنه سيأخذ صينية الشاى من الواقفة وراء الباب ، فواصلت تقليب ديوان كفافيس ، أنتظر ترجمة ديمترى . لكن الباب انفتح ، ودخلت فتاة بصينية ، عليها فنجانان من الشاى ، وسكرية ، وطبق صغير به قطع من البتى فور ..

قال وهو يأخذ الديوان ليعاود الترجمة :

- أختي .. ياسمين ..

كانت في حوالي الخامسة عشرة . امتزجت في وجهها الملامح الأوروبية والعربية بما لا تخطئه العين . الشعر أسود ينسدل إلى الظهر ، والوجه مستدير ، تعلوه عينان واسعتان ، بنيتان ، تسكن إليهما ، تحيا فيهما ، تتوق لأن تظلا تنظران إليك ، ولا تخفض عينيك عنهما . تظللهما أهداب طويلة ، والأنف صغير ، والشفتان ممتلئتان ، والبشرة بيضاء مشربة بحمرة خفيفة . ارتدت جلابية من " الفوال " المنقط ، تحتها قميص أبيض . وانتعلت حذاء مفتوحاً ، تطل منه أصابع مطلية بالمانيكير ..

هتفت في ارتباك :

- آسف !..

كانت فرجينيا تمسك " الكنكة " بيد ، وتقلب على النار - باليد الأخرى - ما لم أتبينه . ألفت مغادرة حجرتي بالبيجامة ، ودخول المطبخ والحمام . لم تعد تسبق خطواتي فحنحة ، أو

حركة تشى بقدومى ..

أطفأت فرجينيا النار ، وصبت رضعة الطفل فى كوب صغير ..

هزت رأسها ، ومضت إلى الحجرة فى نهاية الصالة ..

نسيت فى ارتباكى ما قدمت من أجله . ظللت فى المطبخ لا تصرف . ثم عدت إلى حجرتى ..

كانت ياسمين تنقر الباب المغلق ، وتدخل . تجلس صامتة ، أو تسأل عما يفد إلى ذهنها . مجرد أسئلة ، أو ملاحظات ، تبدو وليدة اللحظة . يرد ديمترى ، أو أرد أنا . تلقى سؤالاً مغايراً . رد اللحظة هو أيضاً . يرد ديمترى ، أو أرد أنا ..

قال لها ديمترى مرة :

– إذا كان هناك ما يشغلك بالفعل .. اسألى !

لوت بوزها ، وغادرت الحجرة فى غضب ..

نادت الأم على ديمترى – ذات أصيل – فاستأذن ..

فوجئت بياسمين جالسة – وحدها – أمامى . الفرصة التى انتظرها . هل يغيب ديمترى فى الداخل ، أو يعود قبل أن أعد ما يجب أن أقوله ؟..

قلت لمجرد أن أكلمها :

- متى تأخذون الإجازة ؟

قالت :

- نحن فى إجازة للمذاكرة ..

- لكن الامتحانات بعيدة ..

- امتحانات الشهادات العامة .. امتحانى للنقل ..

أطلت تأملها ، كأنى أتشرب ملامحها :

- مدرستك أجنبية .. أليس كذلك ؟

وهى تومئ برأسها :

- مدرسة سانت كاترين .. بالقرب من هنا ..

وجه طفولى برئ ، وعينان تنطقان بطيبة واضحة ، وابتسامة لا تغيب حتى وهى تتكلم ، أو تنصت . تكلمت ، فتمنيت لو تطيل الكلام . ألحق ردها بسؤال قد لا أتدبره ، لمجرد أن تستمر واقفة ، أو جالسة ، أمامى ، تتكلم . تستعيد السؤال ـ إن جاءت كلماته غامضة أو مبتورة ـ ببحلقة العينين وإمالة الرأس ، فيتهدل شعرها على كتفيها ، وتتناثر خصلات منه على وجهها ..

قالت وهى تدلك أنفها الصغير بأصبعها :

- هل أنت مصرى ؟

- طبعا ..

ورنوت إليها بنظرة متأملة :

- لماذا تسألين ؟

عاودت تدليك أنفها :

- شعرك أشقر ..

انفرجت شفتاى عن ابتسامة هادئة :

- وهل كل المصريين سود الشعر ؟!

أطالت تأمل أظافر يدها :

- هذا ما أتصوره ..

اتسعت ابتسامتى :

- تصور ليس صحيحا ..

عاد يمتزى إلى الحجرة ، وأنا أفتش عما أواصل به الكلام ، أو أرجو الأسئلة ، تقولها ، فأجيب . لا يتوقف الحديث . تولد فى أعماقى إحساس جديد ، يختلف عما كنت أعانيه . كنت منتشياً بكلامها معى . تتابع عيناى حركة شفتيها الممتلئتين ، وارتعاشة أهدابها ، وجرى أصابعها على شعرها المنسدل ، ولابتسامة الساكنة فى ملامحها . لم أكن أنتظر كلمات محددة ،

ولا معنى بالذات . يهمنى أن تظل جالسة ، أتأملها ، أتوه فى عالمها السحرى . أجدف بالتصورات المطلقة ..

ياسمين !..

كانت المرة الأولى التى تظل صورتها مرتسمة فى ذاكرتى ، بدلاً من المناقشات بينى وبين ديترى ، وترجماته للأدب اليونانى ، وتعريفى بما لم أكن أعرفه من الآداب العالمية ..

نزلت السلم ، وخرجت إلى شارع الكنيسة الأمريكانية ، وملت ناحية شارع مسجد العطارين ، أتمثل حركات ياسمين وكلامها . التفصيلات الصغيرة وهى تتحدث ، وتسأل ، وتفكر ، وتبتسم ، وتشرد ..

صعدت إلى الشقة ..

هززت رأسى - فى صمت - للسيدة ، واتجهت إلى حجرتى . تمددت على السرير ، وصورة ياسمين - وحدها - ثابتة فى ذهنى ..

بدت لى مخلوقة أخرى ، غير اللائى أشاهدهن فى شوارع بحرى ، أو فى الكلية . يزيد من براءتها ، حين تسبق كلامها بحك أنفها بأصبعها . وفى كلماتها وتصرفاتها عفوية واضحة ، فهى لا تعدّ ما تقول ، ولا يشغلها تأثيره ، وتصدق كل

ما تسمعه ..

كانت أشعة الضحى تتسلل ، متباطئة ، من خصاص النافذة . وتناهت موسيقا راقصة من راديو قريب ، وزغردت فى داخلى فرحة لم أقو على كتمها ..

هل هذا هو الحب ؟ وهل أحببتها ؟ وما الحب ؟.. أنا لم أعرفه ، ولا أقمت علاقة مع فتاة من قبل . لم أكن أعرف حتى الفارق بين تكوين الفتاة الجسمانى وتكوين جسم الشاب . تعدت بى القراءة ، وتحذيرات أبى ونواهيه ..

كنت أنصت إلى حكايات الأولاد فى المدرسة عن علاقاتهم بالبنات . أكتفى بالمتابعة فلا أسأل . الفهم متاح للجميع ، فلا أسئلة مما يعد من البديهيات . وكان جواب الأسئلة مما لا أفهمه . ألتقط ما يقولونه ، وأتأمله . حكايات غامضة ، ملتبسة ، أو مختلطة الملامح ، أو مشوشة . وأخجل أن أسأل . وعندما صحوت على بلل ثيابى ، رويت لزميلى فى الدرج . روى لى ماخجلت أن أستعيده ، أو أناقش تفصيلاته ..

وحين تصورت أنى أحببت مديحة ، جارة الطابق الثانى . فتاة فى الثالثة عشرة ، كتبت ما تصورته قصة . بدلت الاسم والمكان والمواقف ، وقرأتها لشقيقها أسامة فى جلستنا على سلم

البيت ..

صعدت الحمرة إلى وجهه :

- أنت تقصد مديحة ؟

دهمنى الإرتباك :

- هذه مجرد قصة ..

ومضت عيناه بشرر :

- مجرد تغيير الاسم والمكان لا يلغى أنها مديحة ..

مزق الأوراق ، وخاصمنى ، فأهملت الأمر . لم أعد حتى إلى وقفتى وراء النافذة المطلة على الشارع الخلفى ، أرقب مديحة وهى تنشر الغسيل ، أو تطعم الدجاج ، وحين دخلت الكلية ، تمنيت أن أحادث فتاة ، أية فتاة . أصادقها . أجلس معها فى الكافيتريا ، أو تحت ظل شجرة ، أو على الكورنيش المقابل لمبنى الكلية ..

تكرر جلوسى - بالمصادفة - إلى جانب طالب فى مثل سنى ، أو يكبرنى بأشهر . تكلمنا فى المحاضرات والدكاترة ومباريات الكرة . حرصنا - فيما بعد - أن نتجاور فى المدرج . أتكلم قليلاً ، وأطيل الإنصات . كان يحدثنى عن علاقاته ببنات . أتخيلها وإن عجزت عن رسمها بملامح محددة . لم يكن لغياب

المعرفة صلة بحلال أوحرام ، ولا خوف أو فقدان ثقة . غابت الحقائق لأنها لم تقابلنى ، أو أنها قابلتنى ، فلم أتبين ملامحها . جهلى بالأمور لأنى كنت كذلك ، لا لسبب آخر . وكنت أنتظر ـ وأتوقع ـ البنت التى توارب أمامى الباب ، فتساعدنى الجرأة على اقتحامه ، وأبوح بمشاعرى . لا أتخيل بنتًا بالذات . تختلط الصور ، وتتشابك ، فلا تستقر على ملامح محددة ..

لم أتوقف أمام السؤال إن كانت صداقة البنت ضرورية ، أم أن صداقة الأولاد تكفى ؟..

كنت أتمثل المواقف العاطفية ، فيما أقرأه من قصص وروايات وقصائد . أصورها بخيالى . وربما أبطأت خطواتى أمام حجرة الطالبات بالكلية . أتطلع إلى الداخل بزاوية عينى . أتساءل ـ بينى وبين نفسى ـ : هل تخرج من هذه الحجرة سندريلا التى أتعرف فيها إلى عالم تخفيه غلالات من السحر الجميل ؟..

لم يكن فى بالى فتاة بالذات . مجرد أن تقود خطواتى فى الدنيا الغامضة ، الغريبة ، الصاخبة . حاولت أن ألفت نظر زميلة فى درج . تبادلنا النظرات . طال ترقبها لكلماتى ، ثم أعطت ظهرها للدكتور ، عندما دخل القاعة ..

وحين علا حاجبا صديقي سعد منصور بالدهشة ، لأني وافقت - تلك المرة - على دعوته ، طال وقوفي بالحرج أمام الفتاة . تقرفصت بجانب جسمها على طرف السرير . ثدياها يطلان من فتحتي القميص الأسود ، ذي النقوش المتداخلة ، وأحاطت وجهها بشعر صبغته بالحناء ، وطلت أظافر قدميها بمانيكير فاقع اللون ..

وهي تداري ابتسامة :

- هل تظل واقفاً ؟

قلت في صوت مرتعش :

- نعم ..

اعتدلت في جلستها . رمقتني بنظرة مستغربة :

- لماذا دخلت ؟..

أغمضت عيني ، فلا أواجه عينيها . قاومت ارتباكي . همست بعدم فهمي وخوفي من الحجرة الواحدة والأربعين ..

قلت في نبرة متوسلة :

- ما أريده أن يعرف سعد أني فعلت مثلما فعل ..

رفعت ثدييها براحتيها في تلقائية ، ليستقرا داخل السوتيان :

- كيف .. وأنت في وقفتك ..

تآكلت الكلمات فى فمى :

- أنا لن أفعل شيئاً ..

وهززت رأسى :

- لا أريد !..

وبهمس متذلل :

- سأعطيك ما تطلبين ..

ولجأت إلى يدى موضحاً :

- قولى لسعد إنى فعلت مثله تماماً ..

وبعد وفاة أبى بثلاثة أسابيع ، عدت إلى البيت ، فوجدت « طارق » يجلس مع فتاة على ترابيزة السفرة . أعدت النظر إليها - بالتذكر - فعرفتها . بنت عم سنباطى بائع الثلج أسفل مسجد نشوربجى . ترددت : هل أسلّم عليها ، أو أمضى إلى حجرتى ؟..

حسم طارق ترددى بقوله فى بساطة :

- أعد لنا الشاى !..

أغلقت على باب حجرتى ، فلم أعرف هل ظلا فى مكانهما ، أم أنهما دخلا حجرته .؟

هل هذا هو الحب ؟..

هو إذن أول حب فى حياتى . لم تكن للحب - فى ذهنى -

من قبل ، صورة محددة . هلاميات بلا ملامح ولا تفصيلات ، لكننى أراه الآن . شاطئ أتوق لدفء شمسه ، وبرودة رماله ، وإمتداد الآفاق من حوله ..

كنت أقرأ - فى الأيام الأخيرة - للمقريزى ، وابن إياس ، والسيوطى ، والسخاوى ، والجبرتى ، والنديم .. أزمعت أن أقرأ - فى الأيام التالية - كتباً أخرى ، يهمنى قراءتها ..

الدين !..

كيف يحيا الأخ المسيحى مع أخته المسلمة ؟ ..

لمحت أباها خارجاً من صلاة الجمعة بجامع العطارين . حاولت تبين ملامحه . بدا طويل القامة ، أميل إلى النحافة ، ويختلط فى شعره السواد والبياض ، واتسعت مساحة الصلع فى رأسه بصورة واضحة . أما ملامح الوجه ، فلم أتبين الأصول التى استمدت منها ياسمين ملامحها . واعتذر ديمترى عن تأخره فى لقاءاتنا أيام الآحاد ، بتردده على الكنيسة ..

هل يصلى أبوها فى البيت ؟ وهل تصلى مثله ؟ وما صورة الشعائر الدينية داخل البيت ؟ ..

قال لى ديمترى :

- مسألة الدين هذه لا تشغلنى ..

وتراقص على شفتيه ظل ابتسامة :

- أنا أتردد على بطريركية الروم الأرثوكس كل أحد ..

ثم وهو يشد عنقه :

- لكننى لست متدينا !

وأنا أحاول كتم مشاعرى :

- وياسمين ؟

هز رأسه :

- ليست متدينة ..

وألقى بديوان ناظم حكمت على الترابيزة :

- ياسمين مسلمة ، لأن أباها مسلم ..

أحكم الفضول قبضته :

- وهل هى مسلمة بالفعل ؟.. هل ..

قاطعنى :

- الدين لا وجود له فى البيت .. كل واحد يحتفظ بعقيدته لنفسه ..

روى لى أن أمه تزوجت فى الشهر العقارى . احتفظت بدينها ، واحتفظ زوجها بدينه . يؤدى صلاته فى البيت ،

وصلاة الجمعة في جامع العطارين ، وتؤدى صلاتها كلما أرادت . لم تكن تبين عن مشاعر من أى نوع . إذا ضبط مؤشر الراديو على تلاوة القرآن . قلدها الرجل فى جمود انفعالاتها ..

قلت :

- ألا تتكلم ياسمين أو تتصرف بما يدل على أنها مسلمة ؟

أطلق ضحكة مبتورة :

- أحياناً تتكلم مثل المسلمين .. فتسبق جملتها كلمة " والنبى " ..

خرجت الكلمات من فمى بطيئة :

- هذا كل ما فى الأمر ؟..

زوى حاجبيه فى دهشة :

- ياسمين أصغر من أن نشغلها فى متاهات الدين !..

لملمت جرأتى :

- هل تأكل ياسمين لحم الخنزير ؟

رمقنى بنظرة متسائلة :

- لماذا ياسمين ؟

- لحم الخنزير محرم على المسلمين ..

أشاح بيده :

- أمي منعت لحم الخنزير .. احتراماً لزوجها ..

ثم وهو يمط شفته السفلى :

- إن أردته .. فالمطاعم كثيرة أمامي ..

ياسمين !..

اعتدت تمثلي لها داخل الحجرة ، واقفة ، جالسة ، سائرة ، متكئة ، صامتة . أطفئ النور ، فلا تزايل صورتها ظلام حجرة . أتبينها بوجهها المستدير ، وشعرها الأسود ، المنسدل ، وعينيها الواسعتين ، وشفتيها الممتلئتين ، وملامحها المبتسمة ..

كنت قد قرأت لابن الجوزى فى " ذم الهوى " : والتحقيق أن العشق شدة ميل النفس إلى صورة تلائم طبعها . فإذ قوى فكرها فيها ، تصورت حصولها ، وتمنت ذلك ، فيتحدد من شدة الفكر مرض "..

هل أنا مريض ؟..

رأيتها فى الطريق ..

أول مرة أراها خارج البيت . جميلة فى المريلة الكحلى ، والشعر المسدل على صدرها فى ضفيرتين ، والكراسات المودعة

بين صدرها وساعديها ، والجورب الأبيض القصير ، والحذاء الأسود . بدت مختلفة عن صورتها فى البيت . حتى ملامحها الباسمة ، بدت متغيرة . كأنها ليست هى ..

مسحت شارع الأسقفية بعينين قلقتين . كان الهواء مشبعاً برائحة المطر ، والمياه اختلطت بتراب الطريق ، والناس يحاذرون التزحلق على الأرض الطينية الزلقة ..

أهملت الارتباك :

- إلى أين ؟..

قالت :

- من المدرسة إلى البيت ..

قلت ، لمجرد أن أتكلم :

- وأنا فى طريقى إلى الكلية ..

بحلقت عيناها :

- ألم تتأخر ؟

- تهمنى محاضرتان .. أولاهما فى الثانية بعد الظهر ..

حين دخلت الجامعة - للمرة الأولى - كنت أدخل عالماً مختلفاً ، غامضاً ، وغريباً : عدم التقيد بمواعيد ، حضور الدروس بلا جرس تبدأ به وتنتهى ، الاختلاط بين الأولاد والبنات ،

الجلوس فى البوفيه ، قضاء الساعات فى المكتبة الواسعة ، مناقشة الرسائل والندوات ..

أسندت ذقنها على الكراسات بيدها ، وتنهدت :

- الجامعة دنيا جميلة !..

لم تعد المحاضرات فى الكلية تشغل يومى كله . انشغل الجميع بما تنشره الصحف والإذاعات عن رفض الغرب لصفقة الأسلحة التشيكية . وانضم الكثيرون إلى منظمة الشباب والحرس الوطنى . وكانت النسمات الخريفية الباردة قد قللت من المترددين على الكازينو ، فانصرفت إلى المذاكرة ، بقراءة الكتب التى استعرتها من مكتبة الكلية ، ومكتبة البلدية ..

قلت :

- سنتان وتدخلين الجامعة ..

تهيأت لسماع ما تقوله ، لكنها نفضت رأسها ، وسكتت ..

أردفت وأنا ألحظ تهيؤها لمواصلة السير :

- هل حددت كليتك ؟

- حتى الآن .. لا .. ربما دخلت الآداب ..

- هذه كليتى ..

اتسعت ابتسامتها ، فبدت الفلجة بين أسنانها :

- صحيح ؟

- طبعاً .. يمكنك دراسة اليونانية ..

- أفضل العربية ..

همست بالدهشة :

- ماذا ؟..

افتر فمها عن ابتسامة ضاحكة :

- ديمترى يجيد لغة أمى .. وأنا أجيد لغة أبى ..

كنت قد سهرت إلى الصباح ، فى قراءة " الفاخر : لأبى طالب المفضل بن سلمة بن عاصم : " يقال : أَحَبّ وحَبَّ بمعنى واحد . وطَبَّ : فطن واحتال . والطِبُّ : الفطنة والحذق ، ومنه سُمّى الطبيب لعلمه وحذقه .. فمعنى الكلام : من أحب أحسن أن يحتال ، فكان فطناً لمن يحب .. "

ما كدت أستقر فى الكرسى ، حتى انفتح الباب . ودخلت ياسمين بيدها صينية الشاى ..

كنت أزور ديمترى لأراها . أحيا على توقع لحظات خروجه من الحجرة . بدت لى عيناها أجمل ما فى الحياة . مع ذلك ، فإنى كنت أخاف من الحب . أحيا المعنى . يجتذبنى ،

أخاف فيه مجهولاً غامضاً ، يضعنى فى مواجهة متاعب لا أقوى على احتمالها ..

كانت تحدثنى عن المدرسة : المدرسين والمدرسات والطالبات والمذاكرة ورحلات إجازة الأسبوع . حتى عم رمضان الفراش ، عرفت عنه الكثير مما روت من حكايات . وكنت أسعد حين تتلامس يدانا ، وهى تقدم لى فنجان الشاى ..

لم تعد تفارقنى . أصحو على صورتها ، وأنام عليها . أتذكرها فى كل حين . ربما فطن ديمترى إلى شرودى : أين أنت ؟.. ولم يكن بوسعى أن أخبره أين أنا . أهمس لنفسى : لو أنى صارحته بما يشغلنى ، هل يرى فى الحب أمراً لا يعيب ، أو أنه يثور لأن أخته هى المحبوبة التى أحدثه عنها ؟ .. وتذكرت قصتى عن مديحة ، وما فعله أخوها ، فلزمت الصمت ..

أشارت إلى الكتب المتناثرة على الترابيزة :

- أنا لا أحب هذه الكتب ..

- أى كتب ؟

- القصائد والقصص الصعبة وكتب الفلسفة والتاريخ ..

قاطعتها :

- فماذا تقرئين ؟

- كتب المدرسة ..

ثم وهى تدعك أنفها بإصبعها :

- ربما استعرت من زميلاتى روايات حب ..

شعرت بأذنىّ تسخنان :

- معظم الروايات تتحدث عن الحب ..

- ليس ما تقرءونه .. أحب إحسان عبد القدوس ويوسف جوهر وأمين ..

أغمضت عينيها فى محاولة للتذكر ..

قلت :

- أمين يوسف غراب ؟

وهى تهز رأسها :

- هذا هو .. روايات سهلة .. ومعانيها جميلة ..

وومضت عيناها بالتذكر :

- هل تعيرنى كتباً من عندك ؟

وضغطت على مخارج الحروف :

- روايات ..

قلت :

- أعرف أن مكتبة ديمترى كبيرة ..

- لا يوجد فيها روايات .. والروايات القليلة لا أفهمها ..

عندما طلبت الفتاة ذات النظارة الطبية ، أن أعيرها الكشكول ، لتنقل ما فاتها من محاضرات ، شملنى ارتباك ، انعكس فى ابتسامة ملأت وجهها ..

كنت أعرف أن تبادل كراسة المحاضرات ، وسيلة جيدة لتبادل العلاقات بين الطالبات والطلبة . وسمعت عن العلاقات التى بدأت بتبادل كراسة المحاضرات ، ورسائل الغرام ، داخل الكشاكيل ..

قيل لى إن طلب الفتاة من الشاب أن يعيرها كشكوله ، معناه أنها توارب الباب ، تشجعه على الدخول . يتبادلان الرسائل فى الكشاكيل .. فهل أكتب لها رسالة ؟..

تدبرت الأمر ، فأدركت أنى لا أريد صداقتها . صداقتها لا تهمنى . لكننى أريد صداقة ياسمين ، حبها . ما أريده هو الحب وحده ، بلا أسئلة ، ولاتخمينات ، ولاتوقعات ، حتى آخر العمر ..

خلوت إلى نفسى - فى المساء - فأخرجت الأوراق من درج المكتب ، وأمسكت القلم . حاولت أن أكتب عنها .

كتبت جملة ، وشطبتها . جملاً وشطبتها . مزقت أوراق كورتها ، وأسقطتها فى السلة أسفل المكتب الصغير . بدا الكلام كثيراً ، ومهماً . أخطر من أن أعبر عنه ، أو أصوغه فى كلمات . أدركت عجزى ، فاكتفيت بأن أظل مع صورتها . عيناها الباسمتان - وحدهما - كل ما أراه ..

وقرأت لابن حزم : " ولولا أن الدنيا دار ممر ومحنة وكدر . والجنة دار جزاء وأمان من المكاره ، لقلنا إن وصل المحبوب هو الصفاء الذى لا كدر فيه ، والفرح الذى لا شائبة ولا حزن معه ، وكمال الأمانى ، ومنتهى الأراجى " ..

امتد الصمت . كنت أفتش عن السؤال الذى يفتح حواراً :

- هل تريد أن ترى ألبوم صورى ؟..

هززت رأسى موافقاً ..

غادرت الحجرة ، وعادت قبل أن أقرأ تعريف الكتاب الموضوع أمامى ، فى غلافه الخارجى ..

مدت يدا ، لبشرتها نعومة ورقة الورد وطراجتها ..

قلبت الألبوم ، وأنا أتابع ملاحظاتها :

- هذه مع ديمترى فى حدائق أنطونيادس .. وأنا فى الثانية

من عمرى .. مع أسرة يونانية صديقة لأمى .. هذا أبى .. صورتى فى الشهادة الابتدائية ..

فاجأتنى بوضع راحتها على صورة صغيرة :

- إلاّ هذه ..

قلت :

- لماذا ؟

جرى إصبعها على أنفها بتلقائية :

- هذه صورتى بالمايوه ..

فكرت أن أدفع يدها ، فأرى الصورة . ثم قلبت الصفحة ..

أدركت أن حياتى قد ارتبطت بهذه الفتاة الجالسة أمامى . لا أتصور عالماً يخلو منها . كان حبى لها يختلف عن حبى لأبى ، ولأمى من قبل . كنت أحب أبى دون أن أتدبر بواعث ذلك الحب ولا حالاته . لا يشغلنى حبى لأبى ، فهو قائم ، ومستقر ، ومتصل بلحمى ، ويخالط ترددات أنفاسى . أنا لا أعنى بمتابعة دقات قلبى ، ولا قياس ضغطى . ولا التأكد من قوة إبصارى ، فهى حالات قديمة ، وممتدة . حالات فى صميم حياتى . نشأت معه ، وترافقها . أما حبى لياسمين فهو حالة استثنائية ، تبدل من حياتى ، ينتشر نورها فيغمر نفسى ..

فكرت أن أكتب لها رسالة : هل أدسها فى يدها ، وهى تقدم لنا الشاى ، أو حين يترك دمترى الحجرة ؟ أطوى عليها يدها، وأدعوها لقراءتها ؟.. فماذا لو أن الرسالة وقعت فى يد دمترى ، أو يد الأب ؟.. لو أن العين المتشككة - من يدرى - لاحظت دس الرسالة فى يدها ؟ أو أنها عثرت عليها بين أوراق الكتاب ؟..

بدت كل المسارب مغلقة ..

كنت قد قرأت للماوردى فى " أدب الدنيا والدين " : " فلما كان الهوى غالباً ، وإلى سبيل المهالك مورداً ، جعل العقل عليه رقيباً مجاهداً ، يلاحظ عثرة غفلته ، ويدفع بادرة سطوته ، ويدفع خداع حيلته ، لأن سلطان الهوى قوى ، ومدخل مكره قوى . ومن هذين الوجهين يؤتى العاقل حتى تنفذ أحكام الهوى عليه . أعنى بأحد الوجهين : قوة سلطانه ، وبالآخر خفاء مكره " ..

أحسست - للمرة الأولى - بمعنى الكلمات التى يتغنى بها عبد الحليم حافظ من راديو قريب :

أول مرة تحب ياقلبى وأول يوم اتهنى

قالت لشرودى :

- تحب عبد الحليم ؟

قلت فى تسليم :

- ومن لا يحبه ؟

فى صوت متهلل :

- أحب شادية أكثر ..

قلت :

- أحب شادية أيضاً .. لكن ديمترى وأنا نتفق على حب عبد الحليم ..

لاحظت تأملى لها بطرف عينى ، فضحكت :

- ديمترى يفضل الأغنيات الغربية ..

قلت بنبرة واثقة :

- أعرف أنه يحب أغنيات عبد الحليم ..

غاب عنى ما أضيفه ، فقلت :

- ربما أغنية بالذات !..

تماوجت فى داخلى مشاعر الشوق واللهفة والفرحة والتوقع والخسارة والتحدى . مشاعر متباينة لارابط بينها . حملنى تصور إلى جزيرة بعيدة ، تحيط بها المياه ، ولايقترب منها مراكب أو بشر ، نحيا فيها وحدنا ، بلا خوف من رقابة أو عين

متابعة . قرأت روايات حب ، وتمنيت أن أحياها . ما جدولين والفضيلة وآلام فرتر ولقيطة والرباط المقدس وشجرة اللبلاب وإنى راحلة وقصة حب والعشاق الخمسة . غلبنى التأثر ، فبكيت . أشفقت على أبطالها ، وإن تمنيت أن أحيا مثلهم . بدت لى - رغم الألم - حياة جميلة ، محلقة ..

كنت أكتفى بمتابعتها وهى فى طريقها إلى المدرسة . أقف فى التقاء شارع الأسقفية وشارع كنيسة اليونان . أتظاهر بتأمل الفاترينات ، فلا ترانى . أظل أتابعها ، حتى تغيب وسط الطالبات داخل المدرسة . كان لها مشية مميزة . أستطيع أن أتعرف إليها فى زحام الطريق ، حتى لو ابتعدت ملامحها الظاهرة ..

كانت تزورنى فى النوم . تصارحنى بما لا تستطيع البوح به فى حضور دمترى ..

أسألها :

- هل تحبيننى بالفعل ؟

- ألا تخبرك نظراتى ؟!

- لكنك لا تتكلمين !..

فاجأتنى بقولها :

- أهديك هذه الأغنية ..

أعطيت سمعى . كانت أغنية حب لعبد الحليم حافظ ، تعلو فى الراديو ، دون أن أنتبه لها ..

أحسست بحرارة تنبعث من مؤخرة رأسى ..

تحبنى ؟!..

لمحت ، فبدت الكلمات فى استجابةعينيها غائبة ، أو أنها تجاهلت المعنى ..

وتذكرت قول ابن حزم : " ولقد وطئت بساط الخلفاء ، وشاهدت محاضر الملوك ، فما رأيت هيبة تعدل هيبة محب لمحبوبه . ورأيت تمكن المتغلبين على الرؤساء ، وتحكم الوزراء ، وانبساط مدبرى الدول ، فما رأيت أشد تبجحاً ، ولاأعظم سروراً بما هو فيه من محب ، أيقن أن قلب محبوبه عنده ، ووثق بميله إليه ، وصحة مودته له " ..

قالت لى السيدة :

– ألن تخرج اليوم ؟

قلت :

– اليوم إجازة .. عيد الجلاء ..

قطبت حاجبيها متذكرة :

-- عيد جديد ؟

رفعت رأسى بنظرة متوددة :

-- اليوم يخرج آخر جندى إنجليزى من مصر ..

وهى تمضى ناحية الطرقة :

- مبروك !..

تمنيت أن تفتح لى السيدة الباب . أعانى عذوبة - ومرارة - الاقتراب من العالم الغامض ، السحرى ، المثير . كنت أريد أن أقعد معها ، نتكلم . ليس كلاماً محدداً ، وإنما كنت أريد أن أجلس إليها هى وحدها . أسأل وتجيب . تسأل وأجيب ، نأخذ ونعطى . أنصت إليها جيداً . أثق أنها ستذهب بى إلى عوالم لم أدخلها من قبل . تصل أحاديث دمترى عن كفافيس وكازنتزاكس وزولا وبلزاك بالعوالم التى تأخر تعرفى إليها . فتح لى دمترى بيت السحر ، فهل تفتح لى السيدة قاعاته وحجراته ، وتطل بى من نوافذه على ما لم يسبق لى رؤيته ؟..

كان وجه السيدة يخلو من تعبير محدد . ملامحه ساكنة ، وصوتها لايرتفع ولاينخفض ، أشبه بمن يقرأ فى ورقة ، وابتسامة هادئة على شفتيها ، تظل فى موضعها ، بصرف النظر إن كان الموقف مفرحاً أم حزيناً ..

فاجأتني بالقول :

- فرجينيا وزوجها يرفضان تأجير الشقة ..

اهتز فنجان الشاى فى يدى :

- ماذا ؟

مصمصت شفتيها :

- لايريدان غريباً ..

داخل صوتى اختناق :

- لكن القرار لك .. أليس كذلك ؟

ربتت فخذى براحتها :

- صحيح ..

ولونت صوتها بنبرة أسف :

- أحتاج لإيجار الحجرة كى يساعدنى على مصروف البيت ..

ثم وهى تهز رأسها :

- أنا أنفق على نفسى ..

- وزوج ابنتك ؟

- يادوب ينفق على فرجينيا والطفل ..

وعاودت ربت فخذى :

- أنت الآن واحد منا ..!

قلت للسيدة :

- هل زرت اليونان ؟

قالت :

زرت أثينا بعد زواجى ..

وسرحت بنظراتها :

- أراد زوجى أن يعرفنى بأهله ..

- هل أعجبتك ؟

وشى صوتها بانفعال :

- لم أحس بغربة .. إنها مثل الإسكندرية .. القهاوى ودكاكين البقالة والباعة المتجولين وباعة اليانصيب وما سحى الأحذية ..

وأردفت بصوتها المنفعل :

- واللغة العربية أيضاً ..

مات والداها فى الحرب بين اليونان والدولة العثمانية . فرت مع خال لها على باخرة متجهة إلى الإسكندرية فى ١٨٩٨ . استقرا فى باب سدرة . تزوجت بقالاً يونانياً له دكانان فى العطارين والإبراهيمية . أغلقت الدكانين بعد وفاته ، وجعلت

عائد المبلغ من البنك راتباً شهرياً ..

قلت :

- هل أصيب بمرض ؟

- لا .. قتل فى الحرب !

- فى اليونان ؟

هزت رأسها :

- كيف ؟!.. التحق بالقوات اليونانية فى مصر ..

ثم وهى تتنهد :

- ذهب .. فلم يعد ! ..

قال لى ديمترى :

- الضوء فى حجرتك مزعج ..

ثم وهو يمسك بطرف الستارة :

- لماذا لاتجلس فى ضوء خافت ؟

لم أعترض . وظل ضوء النهار - رغم إسدال الستارة - يهب رؤية واضحة ..

جلست على طرف السرير . وأشرت إلى الكرسى كى يجلس عليه ، لكنه جلس بجانبى . وكانت ساقاه ترتفعان عن

الأرض ، وتهتزان ..

حدجته بنظرة متسائلة :

- هل تشكو شيئاً ؟

رفع يده إلى رأسه . تحسس تمشيط شعره :

- هل لابد من سبب لأزورك ؟..

وفتح كتاباً صغيراً ، قليل الصفحات :

- سأقرأ لك من كفافيس ..

هززت رأسي ، وأنا أطوى كتاباً على إصبعي :

- اقرأ ..

وقرأ :

" دلف إلى المقهى الذى اعتادا ارتياده معاً . وفى هذا المكان كان رفيقه قد قال له قبل ثلاثة شهور :

- نحن شابان نحيا فى فقر مدقع ، ولم نعد نملك من حطام الدنيا شيئاً .. ولقد اخذر بنا الحال ، فما عدنا نرتاد سوى أرخص الحانات . ولاأكتمك القول ، فما عاد بوسعى أن أظل لك رفيقاً . اعلم إذن أن هناك شخصاً آخر يبغى رفقتى ..

وكان هذا الشخص الآخر قد وعد أن يهديه سترتين وبضعة مناديل من الحرير .. ولكى يبقى على صداقته له ، قلب

الدنيا رأساً على عقب حتى حصل على عشرين جنيهاً . ومن أجل الجنيهات العشرين ، عاد إليه رفيقه . لم يعد إليه من أجل المال فحسب ، بل عاد إليه أيضاً من أجل صداقة الأعوام الخوالى ، ومن أجل الحب القديم . ومن أجل مشاعر عميقة جمعت بينهما ..

لكن الشخص الآخر كان وغداً زنيماً ، إذ لم يهده إلاّ بشق لأنفس ، وبعد أن ألحف فى التوسل والرجاء ، سوى سترة واحدة فقط ..

لكنه الآن ما عاد بحاجة على الإطلاق إلى سترات ، ولا إلى مناديل من حرير . ما عاد بحاجة أيضاً إلى الجنيهات العشرين ، ولا حتى إلى عشرين قرشاً .. ففى العاشرة من صباح الأحد لماضى دفنوه .. أجل ، أهالوا عليه الثرى يوم الأحد الماضى ..

وهاقد مر الآن على وفاته أسبوع . وعلى تابوته المتواضع وضع صاحبنا باقة من الزهور الجميلة البيضاء التى كانت جد لائقة بوسامته ، وبسنين عمره الذى لم يزد عن الثانية والعشرين ..

وعندما دفعته الحاجة للبحث عن عمل يقيم أوده ، ويكسب منه قوت يومه .. وعندما ذهب فى المساء إلى ذات لمقهى الذى اعتادا ارتياده معاً .. ذلك المقهى الكئيب الذى عتادا أن يدلفا إليه معاً ، أحس بطعنة سكين نجلاء تخترق شغاف

الدنيا رأساً على عقب حتى حصل على عشرين جنيهاً . ومن أجل الجنيهات العشرين ، عاد إليه رفيقه . لم يعد إليه من أجل المال فحسب ، بل عاد إليه أيضاً من أجل صداقة الأعوام الخوالى ، ومن أجل الحب القديم ، ومن أجل مشاعر عميقة جمعت بينهما ..

لكن الشخص الآخر كان وغداً زنيماً ، إذ لم يهده إلاّ بشق الأنفس ، وبعد أن ألحف فى التوسل والرجاء ، سوى سترة واحدة فقط ..

لكنه الآن ما عاد بحاجة على الإطلاق إلى سترات ، ولا إلى مناديل من حرير . ما عاد بحاجة أيضاً إلى الجنيهات العشرين ، ولا حتى إلى عشرين قرشاً .. ففى العاشرة من صباح الأحد الماضى دفنوه .. أجل ، أهالوا عليه الثرى يوم الأحد الماضى ..

وها قد مر الآن على وفاته أسبوع . وعلى تابوته المتواضع وضع صاحبنا باقة من الزهور الجميلة البيضاء التى كانت جد لائقة بوسامته ، وبسنين عمره الذى لم يزد عن الثانية والعشرين ..

وعندما دفعته الحاجة للبحث عن عمل يقيم أوده ، ويكسب منه قوت يومه .. وعندما ذهب فى المساء إلى ذات المقهى الذى اعتادا ارتياده معاً .. ذلك المقهى الكئيب الذى عتادا أن يدلفا إليه معاً ، أحس بطعنة سكين نجلاء تخترق شغاف

قلبه "..

تهدج صوته :

- كما ترى .. كان حبه لصديقه ..

حدجته بنظرة مستفهمة :

- فى العربية ربما يخاطبون المحبوبة بالمذكر ..

فوت الملاحظة ، وواصل القراءة :

" قضى كلٌ منهما وطره من اللذة غير المشروعة . ثم نهضا من الفراش ليرتديا ملابسهما ، دون أن ينبس واحد منهما ببنت شفة ..

خرج كلٌ منهما من المنزل بمفرده وهو يجاهد فى الاستخفاء . وما إن سار كلٌ منهما فى طريقه ، حتى ساوره الخوف وانتابه القلق ، متوهماً أن تفضحه هيئته ، أو أن تشى بنوع المتعة الحسية التى كان يعب منها منذ لحظات قليلة ..

لحظات مثل هذه لاتفيد فى الحياة ، ولاتُغنى سوى الفنان . فغداً ، أو بعد غد ، أو ربما بعد سنوات ، سيسطر قلمه أبياتاً متدفقة بالإحساس الجارف ، كانت بدايتها ها هنا .."[1]

---

١ - ترجمة الدكتور محمد حمدى ابراهيم .

تراقص على شفتيه ظل ابتسامة :

- هل قرأت رواية صورة دوريان جراى ؟

قطبت حاجبىّ فى محاولة للتذكر :

- لمن ؟

قال :

- أوسكار وايلد ..

قلت :

- هذا كاتب لأحبه ..

ارتعشت أهدابه :

- لماذا ؟

زفرت فى ضيق :

- لأحب الرجال غير الأسوياء ..

تغيرت ملامحه ، وإن لم تعبر عن معنى محدد :

- هذا شأنه الشخصى ..

ثم وهو يحك ذقنه بأظافره :

- أذكرك بمقولة لوايلد : " أن يكون المرء قاتلاً ، فذلك لايدعو لإدانة ما يكتبه . كما أن الفضائل العائلية ليست أساساً حقيقياً للفن " ..

كان يفاجئني - في الفترة الأخيرة - بما لم أكن أفهمه ، ويصدمني بعبارات غريبة ، وتصرفات . أخذ قطعة الجاتوه من بين شفتيه . أصر أن يضعها في فمي . وقال لي : إن شفتيك لم تخلقا إلاّ للتقبيل ! واثني أمام الكرسي . أمسك فخذي براحتيه . هزهما وقال لي : أحبك . وقال : أنت عندي أجمل من قصائد ناظم حكمت وكفافيس . وقال في نبرة ذات معنى وهو يدخل أصابعه في أصابع يدي : هل تعرف أني أعبدك ؟

استغربت الكلمات . فاجأتني . لم أجد ما أرد به ، وهزمني الإرتباك ..

لو أنه أحب فتاة : ماذا يقول لها ؟..

أحاط رأسي براحتيه ، ومال بوجهه ، وقبلني ..

كنت قد اعتدت - وإن كرهت - احتضانه لي ، وقبلاته في خدي . فاجأني هذه المرة بتقبيلي في فمي . ليست قبلة خاطفة ، ولاتلامساً بين شفاهنا ، لكنه ابتلع شفتي ، اهتصرهما . ضغط بوجهه على وجهي . أحسست بالملمس الخشن لذقنه ، وباللعاب في شفتيه ، واصطكت أسناني بأسنانه ..

ملت إلى الوراء ، ودفعته - بيدي - في صدره ، فارتطم

بالمكتب ..

اعتدل فى وقفته ، فصفعته . شرارة الإشتعال لصفعات أخرى ، متوالية . انطلقت البداية ، فغابت نهايتها ..

تهاوت يداه ، ثم رفعهما إلى وجهه يمنع بكاءً مفاجئاً . بكى بصوت عال . انتفض جسمه ، تشنج ، كأنه يعانى ألما هائلاً ..

همس بحشرجة متقطعة :

- أنت تعرف السبب فى زياراتى لك ..

صرخت :

- أنا ؟!..

لم يعد ديترى الذى يترجم لى قصائد كفافيس ، ويحدثنى فى كتابات الأوروبيين . يشرح ، ويوجه ، ويقاطع ، ويلقى المعلومة . بدا ضعيفاً ، ومتخاذلاً ، وضائعاً ..

أزحت الستارة ، فاقتحمت الشمس رمادية الحجرة :

- هذا سخف ..

قال فى نبرته المتخاذلة :

- أنت لاتعرف شيئاً ..

تكورت قبضتى بعفوية :

من تظننى ؟..

بدا لى صادقاً فيما رواه . أشار إلى ما حدث ، دون أن يسرد تفصيلاته . الترزى الأرمنى أسفل البيت المقابل . لجأ إلى التعبير بيديه ، وتقلصت ملامح وجهه ، وعانى الارتعاشة فى جانب فمه ، والحشرجة المتداخلة فى نبرة صوته ..

قهرنى الغضب :

- لماذا أنا ؟

- أنا كذلك أسأل نفسى : لماذا أنا ؟..

لم أكن أعرف الفارق بين الرجل والمرأة ، ولاأقدمت على تجربة من أى نوع . لم أكن أدرك تصرفات المرأة ، حتى أقارن بينها وبين تصرفات الرجل . كنت أمسك المفتاح ، وأتردد حتى العجز ، فى فتح الحجرة الواحدة والأربعين . تظل فى بالى كعلامة الاستفهام ، كاللغز الذى أخشى مشوار حله . صورة المرأة ضبابية ، أو غائبة . جسدها سر تخفيه ملابسها . عشت حياتى دون أن أعرف ما تخفيه الملابس ، ومدى اتفاق - أو اختلاف - جسم الذكر عن جسم الأنثى ، ولاأعرف - إذا وافقت المرأة - ماذا أفعل ؟.. أتوق لأن أرفع الغطاء عن الصخب الموار داخلى . أعرف ما لا أعرفه . أتجاوز الخيبة وعدم الفهم

والأسئلة المحيرة . أخوض فى البحر . لاأكتفى بملامسة الرمال والحصا على شاطئه . أصادق الأمواج والأسماك وعرائس البحر ..

كانت صفاء ابنة عمى تغلق علينا باب الحجرة المطلة على حديقة ، تلاصق حدائق ممتدة . تتجاور أشجار البرتقال واليوسفى والجوافة وتكعيبات العنب والنباتات المتسلقة . تكبرنى بخمس سنوات ..

أسألها :

- لماذا المفتاح ؟

تجيب ، والتوتر يبين فى ارتعاشة يدها :

- أبداً .. لاأريد أن يزعجنا أحد .

زوجة عمى فى الصالة المطلة على شارع أمير البحر . تكر حبات السبحة ، وتهمس بدعوات ، وتتذكر ما يدعوها للمناداة على الخادمة الصغيرة . والهدوء السادر يعمقه صوت أغنية فى راديو قريب ، أو اسطوانة ..

أجلس حيث تشير فى الكرسى الخيزران بالقرب من النافذة المستترة بالأشجار الطالعة . تجلس وسط السرير . تتمدد . يضايقها الحر فتنزع الروب الوردى . تعدل قميص نومها ، وتسوّى شعرها بيدها ، وتتأمل طلاء أظافر قدميها ..

قال لى طارق :

- قد تستطيع صفاء ابنة عمنا مساعدتك فى المذاكرة ..

أردف فى هدوئه الحاسم :

- ظروفنا لاتسمح بالرسوب !

أخذت الكتب من يدى - فى أول مرة - وقلّبتها . وضعتها على مكتبها الصغير ، تعلوه صورة لها بالمايوه على الشاطئ . روت حكايات تذكرتها من الدراسة الثانوية ، ثم تبدل صوتها :

- الجامعة دنيا مغايرة !.. لامواعيد حضور وانصراف ولازى موحد ولاشخط أونطر ..

وحكت عن بنات وشبان فى دور السينما ، وحدائق الشلالات ، وفى الحجرات المغلقة ..

وواجهتنى بالسؤال :

- ألك صديقة ؟

قلت فى عفوية :

- أنت ..

إعتدت التردد عليها منذ تعلمت حب القراءة فى مكتبة أبى . تضع أمامى كتباً ومجلات . تذاكر ، أو تتجه إلى المطبخ .

ربما جلست مع أمها في الصالة . يصلني أصداء من كلامها ، وأنا أقرأ ..

قالت :

- هذه أختي ..

وغمزت بعينها :

- أنت الآن كبير ..

ولاحظت ارتعاشة تحت القميص الأحمر :

- الصداقة تختلف ..

قلت :

- أنا صديقك بالفعل ..

نفضت رأسها في حيرة . ثم قادتني أحاديثها إلى الغابة المتشابكة الأغصان ، والأركان الهامسة ، والرذاذ المتطاير في سور الكورنيش ، وكافيتريا كلية الآداب ، والتخفي تحت أشجار حدائق الشلالات ، وإغلاق الكبائن في سيدي بشر وستانلي ، وشطارة البنت في المنح والمنع ، وتبادل المواعيد في أجندة المحاضرات ..

كانت تتأمل استجابتي لما ترويه . أظل في جلستي الساكنة . أجوس في كلماتها . العوالم الغامضة السحرية الغريبة . أقرر

مقاطعتها بأنى لاأفهم شيئاً من كل ما ترويه . تتقافز الكلمات فى فمى . ثم يلجمنى الحرج ، فأسكت ..

يذوى - بتوالى الحكايات ، وغياب الاستجابة - تأملها المتوتر . تنزل من السرير ، وهى تدس يديها فى كمى الروب . تدور بالمفتاح فى الباب المغلق :

- أنا متعبة الآن ياحاتم .. أنتظرك بعد غد ..

وأذهب إليها فى الموعد ..

تنسى الأمل الذاوى . تعيد رواية الحكايات . أتعرف إلى ما لم أكن شاهدته من قبل فى العوالم الغامضة ، السحرية . الكثير من المشاعر يشغى فى أعماقى ، لاأحسن فهمها ، ولاأحسن التعبير عنها ، فأصمت ..

تباعدت النظرة المتأملة إلى نهاية الأفق . صارت نقطة ، ثم تلاشت تماماً ..

قالت لى السيدة :

- لم تعد تخرج بعد الظهر ..

قلت :

- الصديق الذى أزوره خارج الإسكندرية ..

ستة أيام غالبت فيها التردد : هل يفتح لى الباب ؟ هل يستقبلنى ؟ هل أستطيع أن أنظر إليه وأنا أحادثه ؟ وهل يقدر على مواجهة نظراتى ؟ وهل نتبادل نفس الكلمات ، ونناقش ما يفد إلى أذهاننا من قضايا الأدب والفن والسياسة ؟. حتى مشكلاتنا الشخصية كنا نناقشها . هل أجلس فى الكرسى المواجه للباب ، وأنتظر النقرات الخافتة ، وأرى ياسمين ؟..

تمنيت أن أزوره . حتى لو أساء استقبالى ، فهذا هو أملى لرؤية ياسمين ..

ياسمين !..

الصورة تملأ خيالى : لاتفارقنى ، وأنا أصحو ، وأنا أنام ، وأنا أقعد ، وأنا أفكر ، وأنا أعمل ، وأنا أجالس الآخرين . تطايرت السدادة من القمقم فى وقت لم أكن أعددت نفسى له . انبثقت الحمم من البركان ، فاكتسحت حتى التصورات ..

دفعتنى قوة ، لم أقدر على مغالبتها . وقفت على الباب ، وضغطت الجرس ..

أفسحت لى الأم الطريق ..

جلست فى الكرسى الذى اعتدته ، أرقب اتساع الانفراجة : ديمترى أو ياسمين . ماذا أقول له ؟ ماذا أقول لها ؟ هل صارحها

أننا لم نعد صديقين ؟..

- أهلا حاتم ..

• كان يرتدى بيجامة من الكستور المقلم بخطوط حمراء . ودس قدميه فى شبشب من الجلد ..

اكتفيت بالقول ، دون أن أواجه عينيه :

- أهلا ! ..

قال كمن يصل ما انقطع :

- هل عرفت الأخبار ؟..

أردف لنظرتى المتسائلة :

- أمريكا سحبت تمويل مشروع السد العالى ..

وتلون صوته بعصبية :

- قال دالاس إن واشنطن تشك فى قدرة مصر على توفير المبلغ اللازم لبناء السد ..

ثم وهو يهز رأسه :

- السبب الحقيقى أن مصر اشترت الأسلحة من الدول الشيوعية ..

قلت فى عدم فهم :

- ما خطورة هذا التصرف ؟

مال بأعلى جسمه ناحيتى ، وأحاط شفتيه بتكويرة أصابعه :

- ربما تعجز مصر عن بناء السد العالى ..

فاجأنى بتغير طبيعته ..

لم يعد ذلك المجامل الذى يجيد استخدام كلماته . كنت أنعى هم لقائه . تصورت أنه سيرفض لقائى ، أو سيدخل الحجرة لينهى الصداقة .. لكنه جاء ، وجلس ، وامتدت أحاديثنا . لم يشر إلى ما كان ، وغابت الكلمات الموحية . وكانت تمور فى داخلى انفعالات معقدة ، شحنات من الانفعال ، أريد أن أتخلص منها ..

وحين نقرت ياسمين الباب ، ودخلت ، تأملتها بنظرة طويلة ، أخمن ما تكتم عليه نفسها . هل تعرف ؟ وهل هى مثله ؟ هل تفاجئنى بما لم أكن أتوقعه ؟..

أعلن جمال عبد الناصر تأميم شركة قناة السويس ..

كنت أقف فى نهاية الحشود التى امتلأ بها ميدان المنشية . اخترت لوقفتى جدار شركة البلاستيك الأهلية ، على ناصية المنشية ، والطريق إلى الكورنيش . صعب على أن أتأمل ملامح عبد الناصر وهو يخطب ، وإن ميزت جسمه العملاق يقف وسط

جالسين . صفق الناس لمّا وصف شركة القناة بأنها شركة نصب . زاد التصفيق لحظة إعلانه تأميم الشركة . تساءلت مع الواقفين : ماذا كان عبد الناصر يعنى بقوله : موتوا بغيظكم ، إن مصر ستبنى السد العالى ، ولو بأظافر أبنائها ؟ ماذا يدبر للغرب بعد قرار سحب تمويل إنشاء السد العالى ؟ هل يقطع العلاقات مع أمريكا ؟ هل يعقد حلفاً مع الروس ؟..

كانت المشاعر فى صالح عبد الناصر تماماً . هزيمة حلف بغداد ، صفقة الأسلحة التشيكية ، إعلان الدستور ، الإفراج عن المعتقلين السياسيين ، جلاء آخر جندى بريطانى عن أرض مصر ..

قبل عامين ، أطلق شاب رصاص مسدسه على عبد الناصر . تباينت التعليقات بين مؤيد لما حدث ، ورافض له . وأكد البعض أن ما شهده ميدان المنشية تمثيلية أسىء إخراجها ..

قالت فرجينيا :

– هل يعادى العالم بعد شهر من استقلال بلاده ؟

أذهلنى قول السيدة :

– عبد الناصر لم يعاد أحداً .. لكنه أمم القناة فى مواجهة المؤامرات ..

صحوت - منتفضاً - على صرخات تقتحم الحجرة . هززت رأسي لأنتبه . كان الظلام حالكاً، فأضأت النور ..

بدا الصوت كالأنين الحاد ، المتواصل . لم أدر إن كان لرجل أم لسيدة . لم أدر حتى الجهة التي ينبعث منها . تعالى ، فبدا كالصراخ . صراخ ملتاع ، ملتاث ، خائف . يواجه ما يصعب احتماله ..

كان الصراخ يعلو في البيت ، في الصالة ، أو في إحدى الحجرات ..

فتحت الباب ، وجريت حافي القدمين ..

كانت فرجينيا تحمل طفلها بيد ، وتحيط أمها باليد الأخرى ، وبيروس يربت كتفها ، وأصابع السيدة تشنجت على جانبي الكرسي ، وساقاها تمددتا فبدت كالمتخشبة . تهدل الروب وراء ظهرها ، فظهر قميص النوم القطني ، المشجر ..

قلت :

- ماذا حدث ؟

قال بيروس :

- لا شيء ! تركناها بمفردها ، ففاجأتنا بما حدث ! ..

أهملت النظرات المتسائلة ، المتوجسة ، وأنا أقترب من الأم ،

وأميل بركبتى على الأرض ، وأحيط ساعديها بأصابعى . أهزها ، وأرد على صراخها بكلمات مدغمة ، وناقصة ، ومبتورة . مجرد محاولة لإسكات صوتها ، وإيقاظها . انتشالها من الدوامة التى تجتذبها إلى أعماق غير مرئية ، وقاسية ..

انتفضت السيدة . صمت صراخها ، وجالت فى الواقفين بعينين متسائلتين ..

كنت أشعر أن فى داخل السيدة ما تحاول تجاهله . يبين فى نظراتها الساهمة ، وشرودها المفاجئ ..

كنت أخوض ظلام الشوارع ، وسلالم البيت . أعد السلالم ، وأتحسس باب الشقة ، والصيحات تترامى من الطريق : أطفى النور !..

قلّ جلوسى فى الصالة . ألزم حجرتى لساعات طويلة . أقرأ ، وأتمدد على السرير ، وأرتب أشيائى ، وأتأمل ما لا أجهد نفسى فى استدعائه ولاتذكره ..

كنت مشغولاً بياسمين ، وإن تبدلت صورة الحياة من حولى بما لم أخطئه : اللون الأزرق يغطى الواجهات ، والنوافذ ، والشرفات الزجاجية . امتلأت الشوارع بالزى الكاكى : جنود

الجيش والمتطوعين ورجال الدفاع المدنى . أجهزة الراديو تتعالى فى الميادين والقهاوى والدكاكين : البيانات ، والموسيقا العسكرية ، والتعليقات ، والمناقشات ، وأغنيات المعارك . أستمع إلى صوت عبد الناصر ، تخنقه الحشرجة : " أنا فى القاهرة . سأقاتل معكم ضد أى غزو ، وإلى آخر نقطة دم . سأبقى فى القاهرة مع أولادى . لن نستسلم أبداً . سنبنى بلداً وتاريخاً ومستقبلاً ، وسننتصر . لقد فرض علينا القتال ، ولكن لايوجد من يفرض علينا الاستسلام " . تتردد أسماء : السد العالى وأيزنهاور وخمسود فوزى ودالاس ودايان وحلف بغداد وإيدن وموليه ولويد وهمفرى ومنزيس وشبيلوف والأسلحة الروسية وبن جوريون وهمرشولد وعمر لطفى ولاكوست والبيان الثلاثى وبينو وثورة الجزائر ..

قرأت فى لوحة الإعلانات داخل الكلية ، وعلى الجدران ، نداءات بفتح باب التطوع . فكرت فى أن أتطوع . ناقشت نفسى ، فعدلت عن الفكرة . إذا تطوعت ، فسأترك عملى فى لكازينو . لن أستطيع دفع إيجار الحجرة ، ولا الإنفاق على نفسى . ولابد أن أترك الشقة .. فأين أذهب ؟..

مجموعات الطلاب ، تناثرت فى ساحة المبنى ، وأمام

أبواب المدرجات ، وفى المسجد ، وتحت الأشجار ، تعلو أصواتهم بالمناقشات ، والأخذ والرد ، والنبوءة . الملك فاروق فى طريقه إلى مصر .. قوات الغزو بدأت الزحف نحو القاهرة .. أين الاتحاد السوفييتى ؟.. هل تنشب الحرب العالمية الثالثة من أجلنا ؟!.. ربما رفعوا أحدهم ، يهتف ، ويرددون وراءه ..

لم أشارك فى المناقشات الصاخبة المتلاغطة ، ولارددت الهتافات ، وإن أصخت السمع لكل ما قيل ..

كنت أطيل الوقوف أمام مجلة الحائط . يزاحمنى الطلبة فى القراءة . تعلو أصواتهم بما تحمله من أخبار وآراء وتحليلات . بدت لى المجلة تعويضاً مناسباً عن اقتصار حضورى إلى الكلية على أوقات المحاضرات . أعتمد على ذاكرتى ، وما أقرأه من كتب الأساتذة ، فلا أكتب كلمة واحدة . كنت أدخل المبنى ، وأغادره ، دون أن يشعر بى أحد . دون أن أسأل ، أو أجيب ، أو أزاحم فى المدرج ، أو أشارك فى أى نشاط داخل الكلية وخارجها . ألفت الكثير من السحن ، فلم أتجاوز ذلك إلى معرفة الأسماء ، ولاالأخذ والرد فى أى موضوع ..

كانت السيدة جالسة أمامى . تدثرت بروب من الجبردين .

وارتدت نظارتها الطبية . تحدق بها في بلوفر صغير ، تطرزه من الصوف . خمنت أنه للطفل ..

كان بيروس خارج البيت ، وفرجينيا مع طفلها فى الداخل . وكنت أعاني توتراً لاأدرى سببه ..

قلت :

- ألا تفعلين شيئا سوى قراءة " الفوس " وتطريز التريكو ..

- ومن يساعد فرجينيا فى عمل البيت ؟..

ثم علا صوتها بما لم أتوقع أنها تحدثنى فيه :

- سحبوا عرض تمويل السد العالى ، فدفعوا عبد الناصر إلى تأميم القناة ..

لم أكن أحب السياسة ، ولاالمشاركة فى أحاديثها ، وإن لتقطت أذناى الكثير مما كانت تعلنه - وتهمس به - الأفواه فى لكلية ، وفى الكازينو . تجميد بريطانيا حساب مصر من لإسترليني.. فرض الحماية على أموال شركة قناة السويس وممتلكاتها فى لندن .. تجميد الولايات المتحدة لأموال مصر مودعة لديها.. عقد مؤتمر للدول البحرية .. تكوين جمعية لمنتفعين بالقناة .. رفض عبد الناصر فكرة الإشراف الدولى .. فشل بعثة منزيس فى مهمتها .. حشود القوات الفرنسية

والإنجليزية فى المطارات القريبة ، وفى عرض البحر المتوسط .. حتى دمترى ، أهمل كتاباً فى يده ، وقال لى :

- هل يستطيع عبد الناصر مواجهة تحالف دول الغرب ؟..

قالت السيدة بلهجة معتزة :

- إذا كان المرشدون الأجانب قد خذلوا مصر .. فإن المرشدين اليونانيين ظلوا فى مواقعهم ..

وهزت رأسها :

- نعم .. لم يعد من المرشدين الأجانب فى القناة إلاّ اليونانيون ..

ثم وهى تدفع بيديها خطراً مجهولاً :

- ما يهمنى فى الأمر كله ألاّ تنشب حرب .. الحرب تخيفنى ..

ألفت صراخها فى الليل . يتبعه حركة ، وأصوات هامسة ، ومتسائلة ، ومستغيثة . تختلط ، فلا أتبين المتكلم على وجه التحديد ، ولاأغادر مكانى ..

فتحت لى الأم ، ومضت فى الطرقة الطويلة ، الضيقة .. جلست فى الكرسى المواجه للباب . دخلت ياسمين وحدها .

كانت حافية . ترتدى فستانا منزلياً أبيض . ينسدل إلى كعب قدميها . مطرزاً بورود ملونة على الصدر ، والكمان ينتهيان بأسورتين من الورود الملونة ..

قالت :

- ديمترى لم يتوقع زيارتك .. ذهب إلى مشوار عمل فى الإبراهيمية ..

قمت من مكانى :

- أستأذن ..

خالط الإشفاق صوتها :

- انتظره .. خرج من الظهر ..

خرجت ، وعادت بصينية الشاى . جلست فى الكرسى المقابل . الكرسى الذى يفضله ديمترى فى جلساتنا . وضعت الملعقة فى السكرية :

- كم ملعقة ؟

- ثلاث ..

لو أنها فتحت الباب المواربة . لو أنها أكملت المفاجأة التى لم أتوقعها . فى لحظة ما ، كانت تتابع أحاديثنا - ديمترى وأنا - أدركت أنها ستظل بعيدة عنى ، وأنى سأظل بعيداً عنها .

تدخل الحجرة . تجلس . قد تسأل ، أو تبدى ملاحظة ، لكن مفتاح الحجرة الواحدة والأربعين ، المستحيلة ، فى يد غيرى . أزمعت أن أكتفى بالمدى الذى تصل إليه يدى .

تناهت صفارة الإنذار ..

كان الليل فى أوله . الظلمة الشفيفة تنداح فى الحجرة ، وأصوات خافتة تترامى من حارة الدرديير الخلفية . وكنت قد اعتدت الإظلام ، وطلقات المدافع ، وصفارات الإنذار ، وعبارات التحذير ، والنداءات ، وصرخات الخوف ..

ومضت أضواء كالبرق من خصاص النافذة المغلقة . تلاها أصوات طلقات متتابعة ..

انتظرت فى مكانها ، وعيناها تتجهان إلى الباب الموارب ..

انتزعت الكلمات :

لاتخافى ..

تعالت أصوات الانفجارات . متوالية ، خيفة ..

قالت :

— أمى نائمة .. ربما تفزعها أصوات المدافع ..

قبل أن تخطو إلى الباب ، تلاحقت أصوات المدافع ، والطلقات السريعة . صرخت ، وارتمت على صدرى .

حسست بنعومة ثديها . التصقت بي مدفوعة بالخوف ، واحتضننا الظلام السادر بتوتر ..

وضعت يدى على ظهر يدها . تخللت أصابعها . ظلت ساكنة ، ولم تسحب يدها ..

كان وجهها قريباً من يدى . رفعته ، وواجهت عينيها . عمضتهما . بدت العذوبة في النبع . تخللت أصابعي شعرها . دنيت وجهها من فمي . قبلت جبهتها وأذنيها ووجنتيها وأنفها وذقنها . استقرت شفتاى على فمها ، فابتلعته . اصطدمت سناني بأسنانها ، وتذوقت لعابها . أحطتها بساعدين يغالبان لارتجاف . أخذتني اللحظة المحمومة ، من الظلام ، وطلقات ..فع ، وتحذيرات الدفاع المدني . مضت بي إلى دنيا جميلة ، ..حرة ..

م أكن أعددت نفسي لما حدث . ولاتصورت أنه ..حدث . لكنها كانت قد أدنت شفتيها من فمي . لامسته ..رقتي ورد رقيقتين . يصعب أن أصف قبلتها بأنها أجمل قبلة .. حياتي ، لأني لم أكن تذوقت القبلة على شفتي فتاة من قبل . ..ت لى القبلة شيئاً لذيذاً ، معنى جميلاً . التصاق شفتين بشفتين . ..ري بالخدر والعذوبة في خلايا الجسم ، يتخللها . يتألق دفء

أشعة الشمس الشتوية ، وضوء القمر ، والنجوم ، وألوان قوس قزح ..

• من قبّل من للمرة الأولى ؟ وكيف رآها ، وقلدهما فيها الآخرون ؟ وهل هي فعل تلقائي ، أو أنها تجد ذاتها في مرآة الآخرين ؟..

هاهي ياسمين أمامي ، بين ساعدي . عيناها الواسعتان . وجهها المستدير كأنه لطفلة . شعرها المنسدل إلى رقبتها .

هأنذا أستطيع - إذا أردت - أن أمسح بيدي على شعرها . وأتحسس بشرتها . وأطيل النظر في عينيها ، فلا تخفضهما . بدت في حضني قطة أليفة ، مستكينة ..

قالت لي :

- أحبك ..

قلت لها :

- أحبك ..

هذه البنت الجميلة حبيبتي ..

انطلقت صفارة الأمان ..

قبلت قمة رأسها ، وأعدتها إلى الكرسي بضغطة أصابعي المترفقة على كتفيها ..

مددت يدى ، وأضأت النور ..

ثوان ، توقف فيها الزمن ، ثم مضت ، وإن افترشت بالى فى الأيام التالية ، التالية . أعيد التصور ، وترتيب ماحدث . حتى الإتماءة لاأفلتها . أصلها بما سبق ، وما بعدها من لحظات ، عندما صحوت من حلم لم أكن أتخيل أنى أحيا فيه ..

تقافزت فى رأسى الأسئلة - وأنا أتمدد على ظهرى ، وأتأمل تكوينات السقف - : هل كان ما حدث أول قبلة لرجل فى حياتها ، مثلما هى أول قبلة لفتاة فى حياتى ؟ هل فعلت ما فعلت لأنها فعلته ، واعتادته ، وإن طال تظاهرها بالبراءة ؟ وماذا عن الغد واحتمالاته ؟ وماذا عن ديمترى ؟ ..

استبقيت الأسئلة . ناقشتها بينى وبين نفسى . أهملتها . استعدتها ، ثم انجابت السحب المتكاثفة ، فلم تعد إلاّ سماء ياسمين الخالية من كل الشوائب ..

أغمضت عينى على ما قرأته لابن قيم الجوزيه : " والعشق يصفى العقل ، ويذهب الهمم ، ويبعث على حسن اللباس ، وطيب المطعم ، وكرم العشرة ، وحفظ الأدب والمروءة . وهو بلاء الصالحين ، ومحنة العابدين . وهو ميزان العقول وجلاء الأذهان . وأرواح العشاق عطرة لطيفة ، وأبدانهم رقيقة ضعيفة " ..

حين انطلقت صفارة الإنذار ، ترامت من داخل العمارة . ومن الطريق ، أصوات متلاغطة : إغلاق أبواب ونوافذ . ونداءات لأشخاص ، ودعوات ، وأحاديث منفعلة ، وتحذير متكرر: أطفى النور !..

غابت صفارة الأمان ، فقلت فى محاولة للتطمين :

- لاتخشوا شيئا .. فالعطارين فى حمى سيدى أبو الدرداء ..

رفع بيروس عينين متسائلتين . وزادت فرجينيا تربيتها - بيد مترفقة - على ظهر الطفل ، وتنهدت السيدة تستعيد ماضياً :

- هو الذى أنقذ الإسكندرية من طوربيد الألمان فى الحرب الماضية ..

قلب بيروس شفته السفلى :

- هل تصدقين ذلك ؟

قالت موضحة :

- إنه ولى .. قديس .. له كراماته ..

شد بيروس ذقنه ، ورقبته ، فيما يعنى عدم الفهم ، وسكت .. ومضت أضواء متتالية خلف النافذة المطلة على الشارع الخلفى .

أضواء باهرة انداحت فى الصالة ، كومضات فلاش الكاميرا ، ثم اختفت . حل ظلام سادر ..

تعالى – فجأة – أصوات ليست كأصوات المدافع . لعلها طلقات رصاص أو مدافع رشاشة . طلقات متوالية ، يعمق تأثيرها الظلمة والسكون والترقب والتخمين والمشاعر المرتجفة . بدت قريبة ، من كوم الدكة ، أو من البحر . لم أستطع تحديد مصدرها ، وإن بدت قريبة للغاية ..

كان الصمت يلف فرجينيا وبيروس والطفل . أما السيدة فكانت بادية التململ فى جلستها . تعلن خوفها بارتعاشة فى يديها ، وصوتها يعالج التعثر فى نبرة مشروخة :

– أورستا!.. أورستا!..

وسدت أذنيها بيديها ، وأغمضت عينيها ، وعلا صوتها بكلمات ، خمنت أنها يونانية ..

كان الخوف قد كسا وجه السيدة بشحوب غريب . وكان وجهها يتقلص . يناقض مألوف هدوئها . كأنها تعانى ألماً قاسياً ، أو أنها تموت ..

تناهى صوت من بعيد ، كأنه أزيز طائرة : معقول ؟!..

وتعالت أصوات الطلقات السريعة ، وأصوات المدافع

المضادة للطائرات ..

قال بيروس :

- هذه مدفعية السواحل ..

رمقته بنظرة متسائلة :

- كيف عرفت ؟..

قال :

- صوتها قوى .. كأنها طوربيد ..

ما كدت أفتح فمى ، حتى احتبس صوتى . أسكته صوت انفجارات متلاحقة . تبادلنا نظرات الحيرة والخوف : ماذا حدث ؟ ما معنى هذه الانفجارات ؟ وأين وقعت ؟..

قال بيروس فى لهجة محايدة :

- أذاع راديو لندن أن القوات الإنجليزية والفرنسية استولت على بور سعيد وبور فؤاد ..

لم أكن أذهب إلى الكلية ، ولا إلى الكازينو . كنت أقضى معظم اليوم فى حجرتى . أدير مؤشر الراديو بين الإذاعات ، أو أقرأ . ربما جلست مع السيدة فى الصالة . تسأل ، فأحدثها عما استمعت إليه فى نشرات الأخبار ، أو من الناس خارج البيت .

أتذكر « طارق » : أين هو الآن ؟ . وكنت أخشى أن تطول فترة الحرب ، فتواجه الظلال أيامى القادمة ..

علت صفارة الإنذار ..

كانت السيدة جالسة أمامى ، مشغولة بالتريكو . وكان بيروس فى الخارج ، وفرجينيا والطفل فى حجرة النوم ..

حل صمت متوتر . ثم توالت الطلقات بعيدة ، قصيرة ، خافتة ..

علا صوت الطلقات ، وتلاحق ، وترامت من الطريق صرخات ودعوات وتحذيرات ، وعانى أذان العشاء الخفوت فى مئذنة جامع العطارين ..

انتفضت السيدة كأنها تعانى حمى ، وأمسكت ساعدىّ بيدين مرتعشتين . أحسست بارتعاشة جسمها ، وشفتاها تغمغمان بعبارات مدغمة ..

تشجعت بالظلام ، فاقتربت . ذوت المسافة بينى وبينها . غرق السن والخوف والتردد والتحذيرات المؤنبة . حتى التطلع إلى اكتشاف الأحداث الغامضة ، المثيرة . همنى أن تستمر اللحظة إلى نهايتها . أية لحظة ؟.. لاأدرى ! .. فقط يظل ساعداى فى يدى السيدة . تهدأ فى حضنى . لا يشغلنى التوقع ولا ماذا بعد . اختفت ياسمين من بالى ، كأنها لم تكن تشغله .

امتلكت السيدة اللحظة وحدها . ملأت المكان بقامتها الطويلة . وشعرها الأبيض ، وعينيها العسليتين ، ورموشها المتساقطة . والتجاعيد عند زاويتى فمها ، والعروق الزرقاء الخفيفة تنبض فى عنقها ، وزغب الشعر فوق شفتيها ، وفى ذقنها ..

غاب التوقع واللحظة التالية . لو أن السيدة تصرفت على النحو الذى أريده . لو أنها فاجأتنى بالمسايرة والرغبة المشتركة ..

لم أكن أعرف ما وراء الباب المغلق ، ولا إن كان بوسعى المضى فى الطريق إلى نهايته . كنت مدفوعاً بقوة غريبة . مسيطرة ، هائلة ، تهمل الحدس والتخمين والتوقع . يشغلها الآن . وليس بعد ..

تهيأت للحظة التالية : أصحب السيدة إلى حجرتى ، أو إلى حجرتها ، الثانية إلى اليسار . ألمحها وأنا فى طريقى إلى الحمام . اصطخبت الرؤى المحمومة . اصطدمت ، وتشابكت ، وتقاذفت ألسنة اللهب ..

لكن ذراعى السيدة تهدلتا - حين انطلقت صفارة الأمان - إلى جانبها . تراجعت ، حتى لامست الكرسى خلفها ، وجلست ..

ما توقعته زال تماماً ، كأنه لم يكن ..

أسلمت السيدة نفسها إلى شرود هادئ حزين . غابت عنى .

لو أني لم أعد واقفاً أمامها . شملني تخاذل ، وأحسست بالسخف ..

حين دست - وهي تقدم لي الشاي - رسالة ، وقرأتها ، أغمضت عيني للأحلام ، وزرعت الورود ، وتطلعت إلى لانهائية الأفق ..

غيرت ما ألفته : أخرج من الكنيسة ، فلا أتجه إلى محطة الرمل . أضالع أفيشات دور السينما . وعناوين الصحف ، والأنوار التي تخلصت من زرقتها . أمضي إلى سعد زغلول . أميل من الفلكي إلى العطارين . غيرت ما ألفته . أعبر الطريق إلى رصيف الكورنيش . أتمشى بخطوات متمهلة إلى محطة الرمل ، أو - في الناحية المقابلة - إلى ستانلي . أرتفق السور الحجري ، وأتطلع إلى انسدال السماء على الأفق . أتأمل المتناثرين فوق الصخور ، أسفل الكورنيش . يمسكون بالبوص ، وتتدلى السنارات ، ساكنة ، تنتظر التقاط الطعم . وارتعاش الأيدي ، فترتفع بالصيد المرتقب . ربما سرقني الوقت ، فأذهب إلى الكازينو ، بيدي الملازم وكراسات المحاضرات ..

نزل حبي البحر . وجهته الأفق ، والآفاق التالية . لم أتصور له عمراً ولانهاية . أحب ياسمين ، وتحبني . حتى ..

ماذا ؟.. حتى لاشيء !.. حتى اللامحدود واللانهائي والمطلق .
تقاسمني أكلي ونومي وقعودي وسيري وتأملي ولحظات التجاذب مع الآخرين . صورتها المتغيرة بحركات وسكنات ..

تركت قاربي يخوض المياه بلا شراع ولامجدافين . يمضي في المياه الهادئة ، والثائرة ، دون إعداد ، وبلا توقع . لاتشغلني حتى نظرات الأب المتسائلة ، ولاشحطات ديمتري بأن تترك الحجرة ولاتضايقنا ..

قلت :

هل أحببت إنساناً آخر قبلي ؟..

همست وهي تخفض رأسها إلى الأرض :

- أنا لم أعرف هذا الأمر من قبل ..

قلت :

- وأنا أيضاً ..

تذكرت - في اللحظة التالية - ليلة الغارة ، والسيدة ، فنفضت رأسي ..

قالت :

- ألم تحب فتاة أخرى قبلي ؟..

كنت أسمع عن الحب .. ولاأعرفه !..

أين السيدة ؟ أين اختفت ؟ ما ملامحها ، وماذا تقول ؟..
بدت كالأصداء البعيدة ، الذكرى التى بهتت تفصيلاتها ، الخاطرة التى تناوش الذهن ، ثم ينساها ..

ياسمين زوجتى ؟!..

أسرح فى امتداد التصورات . صور غير مترابطة ، ملأت وجدانى ، وتمنيتها . نتمشى على رمال الشاطئ ، نخلع حذاءينا ، ونرفع طرف بنطلونى وطرف فستانها . نخوض فى المياه . نحاذر مد الموج المفاجئ . تجنس إلى جوارى . والرذاذ يهب علينا فى انطلاقة اليخت الصغير فى الميناء الشرقية . يستريح رأسها الصغير على صدرى ، وأمشط شعرها الأسود تحت ظل شجرة فى أنطونيادس ، أو الشلالات . تقبض على ذراعى ، رد فعل لخوف لزئير الأسد فى حدائق النزهة . تتشوه ملامحنا فى حجرة المرايا بملاهى الأزاريطة . نعدل الشاى . أحمل لها الفطور إلى حجرة النوم . نتسكع فى الشوارع بلا هدف . نجلس على كرسى فى الكورنيش ، نرنو إلى الأفق ، ونحلم . نشترى فشاراً من محطة الرمل . نتأمل فاترينات شريف وسعد زغلول وصفية زغلول . نفاصل الباعة فى سوق راتب . أنزع جاكتتى ، أضعها على رأسها ، أحميها من رخات المطر . نطل من شرفة تشابه

شرفة بيتنا في شارع الميدان . الصخب يتصاعد وإن أرهفنا السمع لصوت عبد الحليم يغني في راديو قريب . أقدم لها مرتبي أوّل كل شهر ، وأترك لها تدبير مصروف البيت ..

هل أستطيع أن أتزوجها ؟ متى ؟ كيف ؟ هل أتقدم لها قبل تخرجي ؟ .. بعد التخرج ؟ هل تنتظر ؟ ..هل يقبل أبوها ؟.. لو سألني عن عملي ، هل أجيب : طالب ؟ .. موظف بكازينو الفردوس ؟ .. ربما لن يسألني . إذا سألني ، أقول : طالب موظف ، لا أزيد !..

كنت قد قرأت - في الليلة السابقة - ما كتبه داود الأنطاكي عن أخبار المجنون وصاحبته ليلى : " ولما اشتهر أمرهما في العرب ، وشاع شعره فيها ، منعه أهلها الزيارة . وكان في حي ليلى امرأة من بني عامر قد تزوجها رجل من جريش ، ومات عنها ، وقد ترك لها صبية ، فكان يأتيها المجنون يتعرف منها أخبار ليلى . فبلغ أهلها ذلك ، فزجروا المرأة . وجاء المجنون فأخبرته ، فأنشد متمثلاً بيت امرئ القيس ، وضم إليه ثانياً له :

أجارتنا إنّا غريبان ههنا وكل غريب للغريب غريب
فلا تزجريني عنك خيفة كاشح إذا قال شراً أو أخيف لبيب

ثم تركها . وكان يأتي غفلات الحي . فلما علموا بذلك ،

شكوه إلى مروان . فكتب إلى عامله يهدر دمه ، إذا وجد عند ليلى ، فقرءوا عليه ذلك ، فأنشد :

لئن حجبت ليلى وآلى أميرها علىّ يميناً جاهداً لأزورها
وأوعدني فيها رجال أبوهم أبي وأبوها خشنت لي صدورها
على غير شيء غير أني أحبها وأن فؤادي عند ليلى سميرها

ولما يئس من زيارتها ، قلق لذلك قلقاً أدى لزوال عقله ، فهام على وجهه يلعب بالتراب والعظام ، لايعقل غير ذكرها "..

كانت أشعة الضحى تنسحب من خصاص النافذة ، وصوت أذان الجمعة يترامى من جامع العطارين . وكانت السيدة متغيرة الملامح . أهملت الإيشارب . فظهر بياض شعرها ، ويداها ترتعشان . وفرجينيا تميل بأعلى جسدها ، تهمس بكلمات ، وبيروس عقد يديه على صدره ، يتابع في صمت ..

قالت السيدة :

لن أنتظر حتى تقتلني الغارات ..

قالت فرجينيا :

- أين ستذهبين ؟

إلى بلدي ..

- صحتك لم تعد تحتمل ..

- لن أعود لأعمل .. سأقضي بقية عمري هناك ..

- أين ؟

نطق وجهها بالغضب :

- ألم تسمعي ؟!..

- عندما نسافر أنا وبيروس إلى اليونان .. قد نجد عملاً .. أما أنت ..

قاطعتها السيدة :

- عجوز .. أليس كذلك ؟..

قال بيروس :

- إنها تشفق عليك ..

وشى اهتزاز ساقيها بالانفعال :

- ولماذا لاتشفق على في جهنم التي فتحت أبوابها ، ولن تغلقها ..

والتمعت عيناها :

- عندما ضرب الطوربيد البياصة في باب سدرة أثناء الحرب الثانية .. لم أفكر في السفر ، مع أني شاهدت تهدم شارع السبع بنات ..

قالت فيرجينيا :

- لماذا غيرت موقفك ؟

ران على صوتها تخاذل :

الوضع الآن يختلف ..

قال بيروس :

- لن يكون الخطر أشد مما جرى في الحرب العالمية ..

همست في صوتها المتخاذل :

الخطر في الداخل .. هذه المرة ..

ثم وهي تشير إلى نفسها :

عماد الناصر لايريد الأجانب ..

جاهدت لكتم مخاوفي :

- لكن الحرب انتهت ..

قالت :

- وضع الأجانب في مصر سيتغير عما كان قبلها ..

اغتصبت ابتسامة :

أنتم يونانيون .. واليونان صديقة لمصر ..

مالت برأسها ، وأرخت جفنيها :

- لم يعد للأجانب مكان هنا ..

كانت دكاكين بيع الأثاث القديم قد امتلأت عن آخرها . تظل مفتوحة لاتغلق أبوابها . الأثاث مكوم على الأرصفة . تحولت دكاكين أخرى إلى شراء أثاث الأسر الأجنبية المهاجرة ، وبيعه . تحول العطارين ، شوارعه وحواريه وأزقته ، إلى سوق كبير يشغى بالباعة والمشترين . حتى مداخل البيوت ، تكومت فيها قطع الأثاث ..

قلت :

– قوانين الحراسة والتأميم اقتصرت على الرعايا البريطانيين والفرنسيين ..

قالت السيدة :

– هذه بداية لإبعاد الأجانب عن مصر ..

قلت :

لو صح هذا .. فأنتم مصريون !..

أهملت السيدة ملاحظتى :

– حتى تمثال ديلسبس فى مدخل القناة أسقطوه .. إنهم ضد كل ما هو أجنبى ..

كان الباب مفتوحاً ، فثار قلقى . اعتدت أن يكون الباب

موصدا . أو موربا إذا وقف وراءه محصل النور ، أو بائع الخبز ، أو بائع اللبن ، أو الزبال .. وعندما قدمت مع عم عبد الغفار السمسار لاستئجار الحجرة ، ظل واقفاً أمام الباب الموارب ، وظللت في وقفتي على السلم ، حتى أذنت لنا السيدة بالدخول ..

كانت الشقة في فوضى ، واللوحات التي أحبها ، صفت على الكنبة . وجلست فرجينيا وبيروس والطفل على الكرسيين المتقابلين ، في حين توسط عبد الغفار الصالة ، ووقفت السيدة في مدخل الطرقة ..

عبرتني نظرات الجميع ، وأهملوا دهشتي . استكمل عبد الغفار ما كان يتحدث فيه مع السيدة :

- دعي المطبخ في مكانه .. فلننته أولاً من أثاث الصالة ..

عدلت عن السير إلى حجرتي :

- هل ..

قال بيروس :

- نعم .. نعد للسفر خلال أيام ..

لكن الحرب انتهت ..

قالت السيدة :

- لم تعد الحال كما كانت عليه ..

قلت :

هل ضايقكم أحد ؟..

قال بيروس في عصبية :

- لن ننتظر حتى يحدث ذلك ..

وأسرع عبد الغفار من خطواته ، يلحق بالسيدة وهي تحمل لوحة زيتية من جدار الطرقة ..

دخلت - بخطوات مهزومة - إلى حجرتي . احتواني الصمت والوحدة . أعدت تأمل المكان . لابد أن أغادره خلال أيام . وربما خلال يوم واحد . فأين أذهب ؟.. تصورت أن أحاديث العودة إلى الوطن قد انتهت . فأهملت البحث عن حجرة جديدة ..

قابلني طارق في الخناقة الطريق من شارع عبد المنعم إلى شارع صلاح الدين . كنت أتلمس طريقي ، حاذراً الخوض في البرك التي صنعها تقلف الأمطار . اقتحم تجاهلي ، وأوقفني بيد مترفقة :

أين أنت ؟..

كان قد أضاف على كتفيه لجمة ثانية ، وإن بدا مرهقاً ..

قلت :

- في الدنيا ..

ومضت على شفتيه ابتسامة مترفقة :

- أعرف .. أين تقيم ؟

- مع أسرة يونانية ..

ومضت عيناه بالتذكر :

- أسرة صديقك اليوناني ؟

- لا .. أسرة عرفني بها سمسار ..

- ومتى تعود ؟..

استعدت قوله في دهشة :

- ماذا ؟

تراقص على شفتيه ظل ابتسامة :

- متى تعود ؟..

- قلت إنك تريد إغلاق الشقة على زوجتك ..

لاحظت في عينيه تأثر :

- حجرتك مغلقة منذ تركتها ..

تدبرت الكلمات ، رتبتها . كان الإحساس بالحزن قد استقر داخلي ، فلا أقوى على التخلص منه ..

قلت بصوت مختنق :

- لماذا طردتني ؟..

• اتسعت الابتسامة في وجهه :

- مصارين البطن تتخانق ..

قلت :

ليس إلى حد طردها من الجسم ..

قال متضاحكا :

- تعبير جديد .. واضح استفادتك من القراءة !

ضغط على يدى بأصابع مترفقة :

- لازلت متأثراً ؟..

عاطفتي قريبة . ذلك ما كان يصفني به أبي . أتابع مواكب الجنازات في طريقها إلى جامع الشيخ ، فتدمع عيناي لصوت النساء . أبكي للمشاهد المؤثرة في الأفلام التي كان أبي يصحبنا - طارق وأنا - لرؤيتها . أهتز لبكاء طفل . حتى التسابيح التي تسبق أذان الفجر من جامع الشورنجي ، تحرك في داخلي مشاعر حزينة . إذا تضايقت مما لأحبه ، تفجرت الدموع ، لأستطيع كتمها ..

علت نظرتي إلى الطوابق العليا ، حتى لأواجه عينيه :

- أنت أخي ..

وهو يزيد من ضغطه على يدي :

- أنتظرك !

هل أعود ؟ وهل أصارحه بأني لست مسئولاً عن عودة الأسرة اليونانية إلى بلدها ، مثلما لم أكن مسئولاً عن خروجي من البيت ؟ وهل أحس طارق بحزن لابتعادي عن البيت ، أو أنه في حاجة إلى مساعدتي في الإنفاق ؟..

قررت أن أرجئ مناقشة الأمر ، حتى تبلغني السيدة باعتزامها الهجرة . من السهل أن ألملم أشيائي في الحقيبة الجلدية ..

فتحت لي الأم الباب ..

جلست في المكان الذي أفضله . سحبت كتاباً من الترابيزة الصغيرة أمامي . ديوان كفافيس . بدت لي الكلمات بسيطة ، والمعاني تثير التأمل . كانت كل قراءاتي في التراث العربي ، والأدباء العرب المعاصرين : الأيام وفي منزل الوحي وسارة وأدب الدنيا والدين وطوق الحمامة وشجرة البؤس ودعاء الكروان وتاريخ الجبرتي وعودة الروح وما جدولين والنظرات والعبرات وخان الخليلي وزقاق المدق .. نقلني ديمتري إلى

الشاطئ الآخر . أسماء لم أكن أعرف غالبيتها ، ولاقرأت لها ، وإن ظللت أجدف بقاربي في بحر الكتب العربية ، أقرأ ما لم أكن أتصور أني أطالعه ..

دخل ، وجلس في الكرسي المواجه . بدا شارداً ومهموماً ..

أطلق من أنفه ضحكة مبتورة :

- لو أنك تعرف اليونانية .. كنت أهديك مكتبة قيمة ..

- مكتبة من ؟

- مكتبتي ..

أردف للدهشة المتسائلة :

- نحن نستعد للرحيل ..

أحسست بروحي تنسحب :

- إلى أين ؟

- اليونان ..

تعثرت الكلمات على شفتي :

- لماذا ؟ الأسرة التي أقيم معها تعد للسفر أيضاً .. فلماذا ؟..

أومأ إلى داخل الشقة :

- أمي تريد العودة إلى أهلها .. ولابد أن أرافقها ..

- وعملك .. و..

اغتصبت الإسم بصعوبة :

- ياسمين ؟..

- ستظل فى الإسكندرية .. ليست صغيرة ..

استطرد متذكرا :

- ستقيم مع أبيها ..

- وهل تستطيع الابتعاد عنكما .. وهل تستطيعان الابتعاد عنها ؟

قال فى لهجة تقريرية :

- اتفقت أمى مع زوجها على كل شئ ..

لماذا يتآمر العالم على سعادتى ؟ ما صلة ياسمين ، وصنتى ، بالسد العالى ، وتأميم القناة ، والحرب ، وخروج الأجانب ؟.. لا بد أن تظل فى الإسكندية . تبقى معى . يسافر دمترى ، وأمها ، وأى إنسان ، ولاتغادر هى بيت شارع الكنيسة الأمريكانية . أثق أنها تعانى مثلما أعانى . يطول ترقبى للنقرات الهادئة على الباب . أغادر الشقة دون أن أراها . أترك لقدمى مقودى ، تسيران بلا هدف ..

ياسمين الغالية ، الطفلة ، البريئة ، الجميلة . هل تخرج من حياتى ؟ هل يغيب الوجه المستدير ، والعينان الواسعتان ، والأنف الدقيق ، والشفتان الممتلئتان ، والشعر المنسدل فى فوضوية آسرة ؟..

لن يسافروا بها . تظل بالقرب منى . معى . لاتذهب إلى أى مكان :

- أريد أن أتزوج ياسمين ..

- هل تستطيع الإنفاق على أسرة ؟

ذلك ما سيقوله أبوها ، وما سيقوله طارق . كتمت العرض في داخلي . ظللت صديقاً لديمتري . تمتد بنا الأحاديث في الحجرة المغلقة ..

حين لاحظ الأب مشاركة ياسمين في جلساتنا ، دخل الحجرة . قدمني له ديمتري ، وقدمه لي . سأل عن الأسرة والوظيفة والحي . لمحت نظرة الإشفاق في عيني ياسمين ، للحرج الذي أعانيه . ثم انسحب الأب ، ولم يعد . بدا كأنه اطمأن من هاجس يشغله ..

أفقت من الحلم الجميل . ياسمين تفتح لي الباب ، أو أترقب - في موضعي - دخولها . نتكلم . ونتكلم ، ونتكلم . حين ازددنا قرباً ، أحببتها وأحبتني . ما لم أكن أعرف طعمه تذوقته في شفتيها . جاءت - بلا توقع - لحظة الفراق . كنت أسير في النهار المتألق بالضياء ، عندما أظلمت الدنيا فجأة ، ظلمة كثيفة متراكمة . لاترى حتى داخلك ، لاترى شيئاً على الإطلاق . بدا لي الكون ضيقاً ، وموحشاً ، وقاسياً . انداحت في داخلي موجات متتالية من القهر والإحباط والعجز . تحسست لزوجة الدم في أنفي . والسن المكسورة في فمي ، والشج أوسط رأسي ، وتخاذلت للضربات الموجعة . تاه قاربي ، ولم يكن معي ما أطمئن به إلى الطريق الصحيحة . لاخريطة ، ولابوصلة ، ولامرئيات في الأفق ، والسماء

من فوقي ملبدة بالغيوم ، فلا نجم أهتدى به . أعاني الظلام والغربة والضياع . اختلط طريقي ، وفقدت الاتجاه ..

لم أكن أعددت نفسي للفراق ، ولاتصورته . نحيا الحياة ، ونشيّع الجنازات ، لكن تفكيرنا يظل في مساحة الحياة ، لا يجاوزها ..

كنت قد قرأت لابن حزم : " وعاقبة كل حب أحد أمرين : إما الموت ، وإما السلو . والسلو في التجربة الجميلة ينقسم قسمين : سلو طبيعي . وهو المسمى بالنسيان . يخلو به القلب ، ويفرغ به البال . ويكون الإنسان كأنه لم يحب قط . والثاني السلو المسمى بالتصبّر ، فترى المرء يظهر التجلد . ويرى أن بعض الشر أهون من بعض . وهو ليس بناس ، ولكنه ذاكر " ..

أعبر كومات الأثاث . أتفاداها . أهمل سماع المناقشات والأسئلة والأجوبة وتوقعات المستقبل . فسدت الحياة . أفرغت ناقلات البترول ما بجوفها ، فتحول سطح البحر - الذي أحبه - إلى بحيرة واسعة من السواد المميت . المتعفن . تلاحقت النوات ، واكتسح المد الضاري كل الأماني والأحلام والتصورات المنطلقة . علت الأمواج السوداء . فابتلعت ما بداخل البحر ، وما على الشاطئ . انتزعت الصخور الأسمنتية . قذفت بها إلى آخر المدى . حتى ناس الطريق ، كانوا شائهي الملامح . تطفح أعينهم توجساً وكراهية وحقداً ..

مشيت من شارع الخديو إلى شارع السبع بنات ..

بدا لى ميدان المنشية مفترق طرق ..

حددت السيدة ثلاثة أيام ، أترك أثناءها البيت . هل كان طارق صادقاً فى دعوته ، حين قابلنى فى شارع الميدان ؟ وهل أستطيع لقاء ياسمين بعد رحيل دمنترى ؟ هل أقف لها على ناصية شارع مسجد العطارين ، أو أنتظرها أمام المدرسة ؟.. ظلت لقاءاتنا داخل الشقة ؛ فهل تبقى على ودها : تقف لمصافحتى ، تحدثنى ، تسير معى ، ولو إلى مكان يبعد عن البيت ، ولو إلى نهاية الشارع ؟..

مسحت الميدان بعينين قلقتين : مبنى الاتحاد القومى ، وتمثال محمد على ، والكنيسة الإنجيلية ، وبقايا عصر إسماعيل فى البنايات ذات الطراز الأوروبى ، والنخل السلطانى ، والحديقة المستطيلة ، وزحام الترام والأوتوبيسات والسيارات والحنطور والكارو والمارة ، وسراى الحقانية ، والقهاوى ، ومكتبة دار المعارف ، ودكاكين الطعام والأقمشة والأدوات المنزلية ..

غالبت الحيرة والتردد . ثم لزمت الرصيف الأيمن ، فى ضريقى إلى شارع الميدان .

محمد جبريل – مصر الجديدة ٢٣ / ٧ / ١٩٩٥

مؤلفات محمد جبريل

روايات :

١ - الأسوار - (١٩٧٢) - الهيئة المصرية العامة للكتاب - نفد .

٢ - إمام آخر الزمان - (١٩٨٤) - مكتبة مصر - نفد .

٣ - قاضى البهار ينزل البحر - (١٩٨٩) - الهيئة المصرية العامة للكتاب .

٤ - الصهبة - (١٩٩٠) - الهيئة المصرية العامة للكتاب .

٥ - قلعة الجبل - (١٩٩١) - روايات الهلال .

٦ - النظر إلى أسفل - (١٩٩٢) - الهيئة المصرية العامة للكتاب .

٧ - الخليج - (١٩٩٣) - الهيئة المصرية العامة للكتاب .

٨ - اعترافات سيد القرية - (١٩٩٤) - روايات الهلال .

٩ - زهرة الصباح - (١٩٩٥) - الهيئة المصرية العامة للكتاب .

١٠ - من أوراق أبى الطيب المتنبى - (١٩٩٥) - الطبعة الثانية - مكتبة مصر .

قصص قصيرة :

١١ - تلك اللحظة - (١٩٧٠) - نفد .

١٢ - انعكاسات الأيام العصيبة - (١٩٨١) - مكتبة مصر - نفد .

١٣ - هل (١٩٨٧) - الهيئة المصرية العامة للكتاب .

كتب أخرى :

١٤ - مصر فى قصص كتابها المعاصرين - (١٩٧٣) - الكتاب الحائز على جائزة الدولة - الهيئة المصرية العامة للكتاب .

١٥ - مصر .. من يريدها بسوء ؟ - (١٩٨٦) - دار الحرية .

١٦ - نجيب محفوظ - صداقة جيلين - (١٩٩٣) - كتابات نقدية - هيئة قصور الثقافة .

١٧ - السحار ، رحلة الى السيرة النبوية - (١٩٩٥) - مكتبة مصر .

١٨ - أبناء الستينيات (جيل لجنة النشر للجامعيين) - (١٩٩٥) - مكتبة مصر .

١٩ - قراءة فى شخصيات مصرية - (١٩٩٥) - كتاب الثقافة الجديدة - هيئة قصور الثقافة .

رقم الإيداع : ٨٠٢٧ / ١٩٩٦
الترقيم الدولى : 6 - 1013 - 11 - 977